الملخص:

يعمد هذا البحثُ إلى دراسة مقترحات أهلِ الضلال التي تفيض حقدا وحسدا على رسول الإسلام وكتابه وشريعته، وتنبئ عن تأصُّلهم في العناد، وعراقتهم في المجادلة واللجاج؛ اعتراضا على اصطفائه بالوحي واختصاصه بالنبوة، إذ راحوا – بعد أن عجزوا عن التحدي بمعارضة القرآن – يقترحون – عن جهل وحقد وتحكم وعناد – ما يخطر على بالهم – ضارا أو نافعا – ليظهروا عجز النبي – صلى الله عليه وسلم – أمام أتباعهم ودهمائهم؛ ليضمنوا ولاءهم، ويؤكدوا ما هم عليه من الضلال والكبر والكفر، فسجَّل عليهم القرآن الكريم ذلك، ثم راح يكشف زيف باطلهم، ويدحض بهتان افتراءاتهم، رادًّا عليهم في أسلوب حجاجي بياني محكم، وأجوبة مفحمة مسكتة= فكان هذا البحث بعنوان: " مقترحاتُ الكفار على النبي _ صلى الله عليه وسلم _ وردُّها في القرآن الكريم "دراسة حجاجية"، قمت فيه بعرض مقترح المشركين من وجهة نظرهم، ثم أتبعتُه برد القرآن عليهم، مبينا ما اشتمل عليه من وسائل بلاغية تستميل وتمتع، وبتلاحمها مع الحجج تقنع وتفحم، إذ الصور البلاغية لا تصمد بمفردها أمام العناد، فإذا دُعِمت بالحجج العقلية قامت بدورها أحسن قيام، وأدت وظيفتها على أتم وجه، وهذا ما قام البحث له ومن أجله.

Summary:

This research studies the proposals of the people of error that overcame hatred and envy against the Messenger of Islam and his book and his law, and it predicts their deep-rooted intransigence and their Iraq in argument and argument; In protest of his rendering of revelation and his prophecy, they started - after they were unable to challenge by opposing the Qur'an - proposing - ignorance, hatred, judgment and stubbornness - what would come to their minds - harmful or beneficial - to show the inability of the Prophet - may God bless him and grant him peace - in front of their followers and their reassurance; To ensure their loyalty, and to confirm their misguidance, arrogance and disbelief, the Holy Qur'an recorded on them, and then he revealed the falsehood of their falsehood and refuted the falsehoods of their slander, responding to them in a strict Hajj style, and ridiculous answers Misk = this research was entitled: "The proposals of the infidels against the Prophet _ Peace and blessings be upon him _ and its response in the Holy Qur'an "Pilgrim Study", in which I presented the proposal of the polytheists from their point of view, then I followed it up by returning the Qur'an to them, indicating what it contained in the rhetorical means that are used and enjoyed, and their cohesion with the arguments persuades and is charred. She stands alone in front of obstinacy, and if she is supported by mental arguments she does her best job, and she does her job perfectly, and this is what the search has done for .him and for him

بسم الله الرحمن الرحيم

مقترحاتُ الكفار على النبي _ صلى الله عليه وسلم _ وردُّها في القرآن الكريم "دراسةٌ حجاجيةٌ"

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا توجبه سوابغ نعمه، فإن نعمة واحدة لا يوفيها بعض حقها حمد الحامدين دهر الداهرين وأبد الآبدين، وصلى الله – تبارك وتعالى – على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم، وبعد،،،

فقد أرسل الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، غير أنهم انقسموا تجاهه وما جاء به إلى:

١- مصدقٍ اتَّبعه وآمن بما جاء به.

٢- مترددٍ مستشرفٍ برهاناً على صدقه، ودليلاً على نبوته.

٣- متعنتٍ معاندٍ مجادلٍ بالباطل، عريقٍ في الضلال، مصرٍّ الكفر، يقترح الآيات استهزاءً وتهكما وتهربا من الإيمان، وشاهدا بالإصرار على الجحود والطغيان، وذلك شأن أهل العناد واللجاج والضلال في جميع الأمم، كما أخبر عنهم سبحانه بذلك في قوله: ﴿ ﯽ □□ □ □ □ □ ﴾ الذاريات:٥٣، وقوله: ﴿ ﯼ □ □ □ □ ... □ □ □ □ □□ □ ﯿ □ □ ﰀﰁ ﰂ ﰃ □ ﴾ الأنعام:١١٢.

ولهذا لفت نظري وشدَّ انتباهي إيرادُ القرآن الكريم مقترحاتِ أهلِ الضلال على النبي – صلى الله عليه وسلم – ومقترحاتهم اعتراضا على اصطفائه بالوحي واختصاصه بالنبوة، تلك المقترحاتُ التي تفيض حقدا وحسدا على رسول الإسلام وكتابه وشريعته، وتنبئ عن تأصُّلهم في العناد، وعراقتهم في المجادلة واللجاج؛ إذ راحوا – بعد أن عجزوا عن التحدي بمعارضة القرآن – يقترحون – عن جهل وحقد وتحكم وعناد – ما يخطر على بالهم – ضارا أو نافعا – ليظهروا عجز النبي – صلى الله عليه وسلم – أمام أتباعهم ودهمائهم؛ ليضمنوا ولاءهم، ويؤكدوا ما هم عليه من الضلال والكبر والكفر، ومن ثمَّ سجَّل عليهم القرآن الكريم ذلك، ثم راح يكشف زيف باطلهم، ويدحض بهتان افتراءاتهم، رادًّا على مقترحاتهم بما يفضحهم، ويُعرِّي مكنونَ ضمائرهم، ودواخلَ نفوسهم، في أسلوب حجاجي بياني محكم، وأجوبة مفحمة مسكتة= فكان هذا البحث بعنوان: " مقترحاتُ الكفار على النبي _ صلى الله عليه وسلم _ وردُّها في القرآن الكريم "دراسة حجاجية".

وقد قسمته بناء على مقترحاتهم مرتبا هذه المقترحات ترتيبا تنازليا حسب بدهية بطلانها ودلالتها على التعنت والبعد عن الاسترشاد، بادئا بما هو أدخل في استحالة وقوعه في الدنيا، فقدمت مقترحهم تكليم الله تعالى، وأتبعته بمقترحات متعددة حوت الإتيان بالله تعالى والملائكة قبيلا، ثم مقترح الإتيان بآبائهم الأولين وبعثهم في الدنيا...، وختمت بمقترحهم نزول القرآن جملة واحدة، واعتمدت فيه المنهجَ الوصفيَّ التحليلي الحجاجي، القائمَ على عرض مقترح المشركين من وجهة نظرهم، ثم أتبعه برد القرآن عليهم، مبينا ما اشتمل عليه من وسائل بلاغية تستميل وتمتع، وبتلاحمها مع الحجج

والمحاجة تقنع وتفحم، إذ الصور البلاغية لا تصمد بمفردها أمام العقل النفاذ والشك الوقاد، فإذا دُعِمت بالحجج العقلية قامت بدورها أحسن قيام، وأدت وظيفتها على أتم وجه[1]، وهذا ما قامت له ومن أجله هذه الدراسة، على أنه لم يكن من هم البحث التحليل التفصيلي، والوقوف عند كل لفظة وتركيب وأسلوب إلا بما يخدم الغرض؛ لأن لذلك مجالٌ آخرُ وبحثٌ آخرُ، فضلا عن أنه لو تم ذلك لطال الكلام، والسياق لا يسمح بذلك هنا في هذه الدراسة.

وعليه فقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، واثني عشر مطلبا، وخاتمة.

المقدمة تحدثت فيها عن أهمية البحث، وخطته، ومنهجه.

أما التمهيد فقد عرضت فيه بإيجاز تعريف الاقتراح لغة واصطلاحا، وفرقت بينه وبين الشبهة.

المطلب الأول: اقتراح تكليم الله.

المطلب الثاني: اقتراحات متعددة (أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا، أو تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر حلالها الأنهار تفجيرا، أو يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى في السماء....).

المطلب الثالث: اقتراح أن يُؤتَى بآبائهم الأولين.

المطلب الرابع: اقتراح نزول ملك.

المطلب الخامس: اقتراح إنزال كتاب.

المطلب السادس: اقتراح نزول آية.

المطلب السابع: اقتراح إنزال حجارة عليهم أو عذاب أليم.

المطلب الثامن: اقتراح أن يُؤتَى مثل ما أوتي رسل الله.

المطلب التاسع: اقتراح أن يُؤتَى مثل ما أوتي موسى.

المطلب العاشر: اقتراح نزول القرآن على غيره.

المطلب الحادي عشر: اقتراح نزول القرآن جملة واحدة.

المطلب الثاني عشر: اقتراح الإتيان بقرآن غيره أو تبديله.

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن أهم نتائج البحث.

ثم أعقبتها بثبت لأهم المصادر التي استقيته منها.

---

(١) ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي "عناصر استقصاء نظري، أ/ حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر ص ١١٠، العدد ١،٣٠ يوليو – سبتمبر ٢٠٠١م.

الدراسات السابقة:

هناك بعض الدراسات التي اطلعت عليها منها:

- البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم "سورة الأنبياء نموذجاً" د.عبد الحليم بن عيسى، مجلة التراث العربي– مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب– دمشق، العدد ١٠٢ السنة السادسة والعشرون – نيسان ٢٠٠٦ – ربيع الثاني ١٤٢٧هـ.
- البنية الحجاجيّة في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد ١٢ ديسمبر ١٩٩٧م.
- بلاغة الحجاج في القرآن الكريم (سورة الكهف أنموذجا) مذكر مقدمة لنيل شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، إعداد عبدالكريم زواقة، ٢٠١٠/٢٠١١م.
- تجليات الحجاج في القرآن الكريم سورة يوسف أنموذجا، مذكر مقدمة لنيل شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، إعداد الطالبة حياة دحمان، إشراف د/ عز الدين صحراوي/ ٢٠١٢/٢٠١٣م.
- مفهوم الحجاج في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، د/ لمهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨١) الجزء الثالث، تموز ٢٠٠٦/ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ.

وهي جميعها وفي مجملها لم تعرض من قريب ولا من بعيد لمقترحات الكفار عبى النبي صلى الله عليه وسلم بالطريقة التي سارت عليها هذا الدراسة.

التمهيد:

تعريف الاقتراح:

الاقتراحُ في اللغة: من قَرَحَ[١]، ويدور حول عدة معانٍ، منها: (الاستدعاء، والطلب، والابتداع، والارتجال، والاختبار)، يقال: اقترحت عليه شيئا إذا سألته إياه، وطلبته منه على سبيل التَّكليف والتَّحكُّم، واقترح الشَّيْء: ابتَدَعَه، واقترحَ خُطبتَه: ارتجلها، والاقتراحُ: استنباطُ الشيء من غير سماعٍ، والاجتباءُ والاختبارُ، واقترحتُ كذا على فلان: ابتدعت التّمنّي عليه[٢]، والاقتراحُ: الفكرةُ تُهيَّأ وتُشرح وتُقدَّمُ للبحث والحكم، القريحة: ملكة يقتدر بها على ابتداع الكلام، وإبداء الرأي[٣].

وقريب منه الشبهة، غير أنها لا تكون إلا في أمر واقع أو شيء كائن، أما الاقتراح ففي شيء مستقبلي لم يحدث بعد، بل يُطلَبُ حدوثُه.

الاقتراحُ في الاصطلاح: هو: الاستدعاء والطلب والسؤال على سبيل التكليف والتحكُّم[٤]؛ لتحقيق غرض ما، والعلاقة بين المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي واضحة وجلية.

ومقترحات الكفار على النبي – صلى الله عليه وسلم – يُقصد بها هنا: مطالبهم التعجيزية التي طلبوها لإحراجه –صلى الله عليه وسلم –، وصدِّ الناس عن اتِّباعه؛ حسدا من عند أنفسهم، وإصرارا على كفرهم، وبغضا له ولما جاء به.

المطلب الأول: اقتراح تكليم الله تعالى.

جاء ذلك في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ البقرة:١١٨

والآية واردة في سياق حكاية قبائح المشركين من جميع الأمم، وقدحهم في النبوة، واختلافهم على أنبيائهم، فبعد أن حكى بعض أقوال أهل الكتاب: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) ١١١، ومجادلتهم بعضا في: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) ١١٣، ثم جمعهما في قول عمهم: (وقالوا اتخذ الله ولدا) ١١٦، عطف على ذلك حكاية

(١) تهذيب اللغة للأزهري، (ق ر ح) ١٢٥/٤ وما بعدها، تحقيق: محمد عوض مرعب دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الأولى ٢٠٠١م.

(٢) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ص ٦٦٦ الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية : دمشق – بيروت

(٣) المعجم الوسيط ٢، ٧٢٤.

(٤) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ) ٥٨، الطبعة: الأولى، عالم الكتب – القاهرة١٤١٠هـ-١٩٩٠م، والكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)
تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ص١٥٩، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون.

مشركي العرب[١] للنبي – صلى الله عليه وسلم – : (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله...).

فقد طلبوا – على سبيل التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول استكبارا بأن عدُّوا أنفسهم أحرياء بالرسالة – أن يكلمهم الله بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة، أو يكلمهم تنصيصا على نبوتك، وقد بلغوا من العتو والاستكبار أن أمَّلوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول أو الملك[٢].

أو أن تأتيهم آيةٌ حجةً على صدقه، فبلغوا من العناد والجحود والاستهانة والمكابرة إلى حيث يستهينوا بآيات الله الباهرات التي تخر لها صمُّ الجبال – بما فيها القرآن – ولم يعدُّوها من قبيل الآيات[٣].

وهذا دأبهم، يطلبون آيات التعنت؛ مبالغة في الجهالة[٤]، ولا يقصدون تبيين الحق ولا الاسترشاد، فقد جاءهم من الآيات ما على مثله يؤمن البشر[٥].

وأرى أن سبب هذا الاقتراح الكبر المهلك الذي يقود أصحابه إلى رؤية النفس واحتقار الآخرين، ويمنع المتكبر من معرفة الحق، ويحجبه عن الهداية وسلوك طريقها، كما قال سبحانه: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) الأعراف: ١٤، فتشابهوا بذلك العناد والتعنت والفساد مع من كان قبلهم وحذوا حذوهم.

الرد عليهم:

ابتدأ سبحانه الرد عليهم بقوله: (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) أي: في العمى والعناد والتعنت والاقتراح[٦] والأفن وسوء النظر[٧].

وهو جواب إجمالي اقتُصر فيه على **الحجاج**

---

(١) كما هو رأي أكثر أهل التفسير ينظر: إرشاد العقل السليم ١٥١/١، روح المعاني ٣٦٩/١؛ لأن ما يحكى عنهم لا يتصور ممن له شائبة علم أصلا. ينظر: التحرير والتنوير ٦٧٠/١.

(٢) إرشاد العقل السليم ١٥١/١.

(٣) ينظر: الكشاف ٢٠٨/١، إرشاد العقل السليم ١٥١/١، نظم الدرر ٢٣٣/١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٦٧٠/١.

(٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ٥٥٢/٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م، أنوار التنزيل ١٠٣/١، مدارك التنزيل ١٢٥/١، تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين،٥٣٧/١، ٥٣٨، دار الكتب العلمية لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م الطبعة : الأولى، روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت:١١٢٧هـ) ٢١٥/١، دار الفكر – بيروت، تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت:١٣٧١هـ)، ٢٠١/١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

(٦) ينظر: روح المعاني ٣٦٩/١.

(٧) ينظر: التحرير والتنوير ٦٧١/١.

بتنظير حالهم بحال من قبلهم، كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم، وأنه ليس حقيقا أن يُجاب؛ لأنهم ليسوا بمرتبة من يكلمهم الله، وأن أفهامهم ليست أهلا لإدراك صدقه من عظيم الآيات والدلائل على نبوته، فضلا عن كون مقالهم بدهيُّ البطلان[١]، وأنه أشبه شيء بكلام الأحمق، وجواب الأحمق السكوت[٢]، والسائل المتعنت لا يستحق إجابة.

وفيه أيضا تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتسرية عنه بأنهم كما تعنتوا عليه فقد تعنت من قبلهم على الرسل قبله؛ لأنه كان يغتم ويضيق صدره لعنادهم وتعنتهم وإصرارهم على الكفر[٣].

ثم علَّل الإعراض عن جوابهم بقوله: (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)، أي: وضحنا الدلالات على طريق الحق بأعظم برهان لقوم يطلبون الحق واليقين، ويوقنون بالحقائق، لا يعتريهم شبهة ولا ريبة لما وضح لهم من الأدلة[٤].

وقد استخدم هنا من صور الحجاج ما يلي:

١- **صورة الحجاج الحواري السردي القائم على استدعاء مشاعر المخاطب من خلال حكاية قولهم بلفظ القول**، ثم وصفهم في مستهل الحديث بـ (الذين لا يعلمون)، وفي الختم بـ (قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)؛ دلالة على بدهية بطلان مقترحهم.

٢- الصورة التشبيهية المستقاة من وصفهم في مستهل الحديث بـ (الذين لا يعلمون) الذي قام عليه بطلان مقترحهم من خلال استقراء مشهد من كان قبلهم وتشابه ما قالوا، بل وتشابه قلوبهم في العناد والجحود؛ توصُّلاً إلى استنتاج بطلان ما قال المتأخرون كما ثبت بطلان ما قال من كان قبلهم (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ)، في حجاج (غير مباشر) مكنيٍّ عنه، يغني عن الشرح والتفسير؛ لأن تكليم البشر (والكفار منهم خصوصا) الله تعالى أمر بدهي الاستحالة، في غنى عن دليل للتسليم به بناء على المعارف المشتركة والمسلمات المعلومة.

٣-الإيجاز لإفساح مجال التوسعة على القارئ ليملأ الفراغ بالعودة إلى نفسه؛ وإقناعها ببطلان ما اقترحوا من خلال مراجعة المسلمات من المحالات، وذلك أقوى وسائل التأثير والاستمالة.

المطلب الثاني: اقتراحات متعددة (أن يفجر

لهم من الأرض ينبوعا، أو تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر حلالها الأنهار تفجيرا، أو يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى في السماء....).

وقد جاء ذلك في قوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٦٧١/١، محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت:١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ٣٨٦/١، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) ينظر: روح المعاني ٣٦٩/١.

(٣) ينظر: الكشاف ٢٠٨/١، نظم الدرر ٢٣٣/١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٥١/١، نظم الدرر: ٢٣٣/١، روح المعاني ٣٦٩/١.

لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً) الإسراء: (٩٠- ٩٥).

والآيات واردة في سياق الحديث عن الذين بالغوا في العناد والضلال، وأبوا الإيمان، ولم يرضوا بخصلة سوى الكفر حتى بلغوا مرتبة الإباء[١]، كما أخبر عنهم(فأبى أكثر الناس إلا كفورا) الإسراء:٨٩، فاقترحوا - عند ظهور عجزهم، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الحسية الباهرة - جملة من المقترحات، (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا)، (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا)، (او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا)، (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)، (أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه).

وجميعها مما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه، كما هو ديدن المعاند المبهوت المحجوج[٢] المتعثر في أذيال الحيرة[٣]، وما يقصدون بتلك المقترحات إلا العناد واللجاج والتحكم والمكابرة[٤].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات أن كبار القوم وهم جلوس عند الكعبة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: يا محمد، إن أرض مكة ضيقة فسيِّر جبالها لننتفع فيها، وفجِّر لنا فيها ينبوعا، أي: نهراً وعيوناً؛ حتى يسهل علينا أمر الزراعة والحراثة، فقال: لا أقدر عليه، فقال قائل منهم: أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، فقال: لا أقدر عليه، فقيل: أو يكون لك بيت من زخرف، أي: من ذهب فيغنيك عنا، فقال: لا أقدر عليه، فقيل له: أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك؟ فقال: لا أستطيع، قالوا: فإذا كنت لا تستطيع الخير، فاستطع الشر، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أي: قطعاً بالعذاب، وقوله: (كما زعمت) إشارة إلى قوله: (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ) الإنشقاق:١، و (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ) الانفطار:١، فقال عبد الله بن أمية المخزومي وأمه عمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لا والذي يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلماً فتصعد فيه ونحن ننظر إليك، فتأتي بأربعة من

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ١٥٩/٨، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي٤٩/٢١، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، نظم الدرر٤٢٥/٤، روح المعاني ١٥٩/٨.

(٣) ينظر: الكشاف٦٩٣/٢، معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت:٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ٢٥٩/٣، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب٤٩/٢١.

الملائكة يشهدون لك بالرسالة، ثم بعد ذلك لا أدري أنؤمن بك أم لا[١].

وإسناد هذه المقترحات إلى الجميع (قالوا) مع صدورها عن بعضهم لا يلزم منه أن يكون كل واحد منهم قال هذا القول كله، أو أنهم جميعهم خاطبوا به النبي – صلى الله عليه وسلم – في مقام واحد، إنما هو لبيان أنهم جميعا راضون به ومتمالئون عليه[٢]؛ لأن قادتهم إنما فعلوا ذلك ليرى أتباعُهم أنهم قد حاجُّوا الرسول واعترضوا على براهين نبوته، فينصرفوا عن الإيمان به، لتبقى لهم الرئاسة والمنافع، ولا يذهب ذلك عنهم[٣]، فقد رأوا في دعوة الرسول تحديا لزعامتهم، وتهديدا لمكانتهم، وهزًّا لكبريائهم، فأخذوا يتحدونه تعنتا وكبرا وعتوًا..

وتصدير مقترحهم بـ (لن) الداخلة على المضارع (نؤمن) المتلوّ بـ (حتى) في: " لن نؤمن لك حتى..." يشهد بتصميمهم على الامتناع، وتمكن الكفر منهم، وإن كان ظاهره يوحي بإمكانية إيمانهم وتعليقه على تحقيق المطالب.

فهي سرد حجاجي جدلي مباشر قائم على الماديات، منبئ عن التعنت، وأصالة العناد، وتمكن الضلال، هدفه تعجيز النبي – صلى الله عليه وسلم – وإحراجه، وليس طلب الدليل ليؤمنوا، وإلا أغناهم ما أوتيه من الآيات الباهرات التي هي أعظم مما اقترحوا..

فضلا عما فيه من دلالة على التورُّك والتهكم المنبئ عنه انتقالهم من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى ما فيه مضرتهم في " أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا"، كأنهم يريدون بذلك التوسيع عليه؛ إغراقا في التهكم، وهذا ما ينبئ عنه الاعتراض "كما زعمت"، كما ينبئ عنه – أيضا – التفنن في الاقتراح بعد ذلك بطلب ما يدل على جهلهم " أو تأتي بالله والملائكة قبيلا"، وطلب أن يرقى في السماء، ثم تأكيد تعنتهم ولجاجتهم وتبجحهم بتكرار تعليق إيمانهم – حتى لو رقى السماء – على إتيانه بكتاب منشور بلغتهم وعلى أسلوب كلامهم فيه تصديقه ويشهد بنبوته "أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاب نقرأه"[٤].

ولعل ترتيب المقترحات على هذا النمط؛ لأنهم حصروا حاله في دعوى أن يكون عظيما يتبعه الناس في أمرين:

الأول:الرسالة.

الثاني: غيرها.

فإذا كانت عظمته بالرسالة، وكان مقبولا عند مرسِله فإما أن يسأله في نفع عام بالينبوع، أو خاص به وذلك بالجنة المذكورة، أو يسأله ضرا بإسقاط السماء عليهم كسفا، أو يسأله الإتيان مع جنده ليصدقوه.

وإن كانت عظمته بغير الرسالة فإما أن يكون

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب٢١/٤٧، ٤٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٥/٢٠٦.

(٣) ينظر: تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ)، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، ١١٢/٧، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب٥/١٩٤، روح المعاني ١٦٠/٨.

ملكا ليكون له البيت المذكور من زخرف...، أو يكون ممن يجتمع بالملك الذي أرسله فيرقى في السماء كما قالوا[١].

والناظر في هذه المقترحات منذ اللحظة الأولى يلحظ مدى عنادهم وتعنتهم في مطالبهم، ويدرك أنهم ما طلبوها ليهتدوا ويؤمنوا، بل إن قصدهم إرضاء أوهامهم، والتورك والتهكم على النبي – صلى الله عليه وسلم –، والتنصُّل من الدخول في دينه، وأنهم لو جاءهم الرسول بضعف ما اقترحوا لما زادهم إلا مكابرة[٢]، ولقالوا فيه: سحرٌ، أو قالوا: قلوبنا غلف، أو نحو ذلك[٣]، كما بيَّن سبحانه في قوله:ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ الأنعام: ٧، وقوله: ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ الحجر: ١٤-١٥ ، وقوله: ﭽ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﭼ يونس: ٩٦ – ٩٧.

كما يدرك مدى جهلهم وتخبطهم الناشئين من إغلاق قلوبهم تجاه الإيمان، ويظهر ذلك من تسويتهم في مقترحهم بين تفجير الينبوع وأن تكون له جنة من نخيل وعنب، وإسقاط السماء عليهم كسفا، ومجيء الله وملائكته قبيلا، وأن يكون له بيت من زخرف ورقيه في السماء.

ولشدة عنادهم ذكروا أنه لن يجدي معهم رقيُّه السماء شيئا – لو حدث – حتى يأتيهم بكتاب يشهد بصدقه.

كما أن اقتراحهم أمر شر (إسقاط السماء عليهم كسفا) يشهد بذلك أيضا، مع ما فيه من دلالة على خطل عقولهم، وزيغ أبصارهم، وعمى قلوبهم، وطفولة مداركهم، وسذاجة مقترحاتهم التي لا يفرقون فيها بين ضار ونافع، وجهلهم بالأولويات، ويكشف بجلاء أن المهم عندهم تعجيزه؛ ليكف عن دعوتهم.

وقد بلغ بهم الحمق مداه، والظلم منتهاه لما غفلوا عن الخارقة الباقية في القرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه ومحتواه، ولم يمس الإعجاز شغاف قلوبهم، وراحوا يطلبون ما تدركه حواسهم[٤].

وزادت جلافتهم وضلالهم حتى وصل الأمر بهم أن يسألوه أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا.

الرد عليهم:

لما كان اقتراحُهم اقتراحَ تعجيز وإحراج، وملاجَّة وعناد، جاء الرد عليهم معتمدا **أولاً على الحجاج السردي القائم على المحاورة المبنية على العموميات العقلية المتفق عليها، التي لا تحتاج في إثبات صحتها إلى برهان، بل يكفي أن يوجههم ويلفتهم إليها، (وهي أنه بشر، والبشر لا يتأتى منه شيء مما اقترحوا)، وتلك الصورة الثانية الحجاج التوجيهي وإيصال الحجة إليهم عن طريق الاستفهام الذي يلعب دورا رئيسا في الإقناع بالحجة**[٥] **(هَلْ كُنتُ إَلاَّ**

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٤٢٦/٤

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب١٩٤/٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠٣/٨.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن سيد قطب ٤٤/٥، موقع التفاسير http://www.altafsir.com

(٥) ينظر: البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، ص٣٤١، ٣٤٢،

بَشَرًا رَّسُولاً) لما يقوم به من جلب المتلقي وإشراكه في عملية الاستدلال والإقناع بالحجة من خلال طرح القضة في صورة سؤال هو من يجيب عليه؛ لتكون قناعاته مبنية على إجابته، فَيَثْبُتُ بطلانُها، وبهذا يحقق الحجاج مقصده من القطعية وارتفاع التردد والاحتمال عن النتائج التي يتوصل به إليها، والاستقلال حيث يستقل البرهان عن صاحب القضية (محمد صلى الله عليه وسلم) ولو كان حاضرا في التصور، لينهض بإثبات ما جاء لأجله بمجرد التلفظ به من أي متكلم،[١] ولهذا أمره الله أن يجيبهم بما يدل على التعجيب من كلامهم، وإحالتهم إلى أنفسهم إنكارا عليهم[٢].

أ) التعجيب من كلامهم في قوله: (قل سبحان ربي...) فهو تنزيه لله عن الإتيان والمجيء، وتقديس عما لا يليق به من وضوح عنادهم، وبطلان قولهم، وتجرُّئهم عليه لمَّا اقترحوا ما به تجاوز الحد لأمثالهم[٣]، وتنزيه له عن العجز عن اقتراحاتهم وهو القادر الذي لا يعجزه شيء، وعن أن يتقدم أحدٌ بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته[٤]، وهو جوابٌ كافٍ في هذا الباب، وحاصل الكلام أنه سبحانه بيَّن بقوله: (سُبْحَانَ رَبِّى) كونهم على الضلال في الإلهيات، وبقوله: (هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً) ضلالهم في النبوات[٥].

ب) أما ما يدل على إحالتهم إلى أنفسهم إنكارا عليهم، فذلك في الاستفهام "هل كنت إلا بشرا رسولا" الذي يثير أذهانهم إلى أنه بشر منهم، بشر لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر حتى يتصور منه الرقي في السماء[٦]، (رسولا) مأمورا كغيره من الرسل، لا يتعدى ما أُمر به من التبليغ، من غير أن يكون له خيرة في الأمر، أو أن يأتي بشيء إلا بإذن الله، وبما يريد الله إظهاره على يديه حسبما يلائم مقتضى مشيئته، وليس أمر الآيات موكولا إليه حتى يتحكم في شيء منها[٧]، وأنه ليس إلها حتى يطلبوا منه ما يُطلب من الإله[٨].

ت) ثم أعقب ذلك ببيان سبب منع الناس

مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر، العدد ١٢ ديسمبر ١٩٩٧.

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص ١٣٧، ١٣٨، المركز الثقافي العربين الرباط، بدون.

البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد ١٢ ديسمبر ١٩٧، ص 341 . ٣٤٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢١٠/١٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٩/٢١، نظم الدرر ٤٢٦/٤.

(٤) ينظر: الكشاف ٦٩٤/٢، تفسير القرآن العظيم ١١١/٥.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٩/٢١، نظم الدرر ٤٢٦/٤.

(٦) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٩/٢١، ٥٠.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٩/٢١، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٥٠٤/٣، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية – لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

(٨) ينظر: نظم الدرر ٤٢٦/٤.

من الإيمان؛ إتماما لإبطال مقترحهم، فقال: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ ﯽ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الإسراء: ٩٤.

وتلك حجة الجاحدين والمعاندين المصرين على الكفر في جميع الأمم، فقد كان ذلك أعظم ما صدَّ الناس عن الإيمان، فقد حكى عن قوم نوح قولهم: ﴿ □ □ □ □ □ □ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ □ ﮀ □ ﴾ المؤمنون: ٢٤، وعن قوم هود: ﴿ □ ﴾ المؤمنون: ٣٣، وعن قوم ثمود: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ القمر: ٢٣ – ٢٤، وعن قوم صالح: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الشعراء: ١٥٣ – ١٥٤، وعن قوم شعيب: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الشعراء: ١٨٦، وعن قوم فرعون: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ المؤمنون: ٤٧، وفي كفار مكة: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ ق: ٢.

ث) ثم ردَّ عليهم بما يفحمهم ويسكتهم فلقَّنه الحجة القاطعة للضلالة **مستخدما الحجاج السردي الحواري** ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الإسراء: ٩٥، **الذي يحمل في طياته دلالات بطلان حجتهم، واستحالة مقترحهم، وتوضيح حكمة اختيار الرسل من البشر من بني جنسهم.**

١- فقد جعل الله الرسالة للبشر حتى يستطيعوا التفاعل بيسر وسهولة فيما بينهم؛ إذ حين يكون الرسول منهم يشعر بهم، ويعرف ما يحبون وما يكرهون، وما يسهل وما يشق عليهم، ولو كان ملكا لاستكثروا الأعمال الموجهة إليهم، وقالوا: إنه ملك قوي بخلاف بشريتنا الضعيفة، أما البشري فلا يتميز عنهم.

٢- أن الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحق بدون هوادة، مع سرعة تنفيذ الجزاء على المخالفين﴿ □ □ □ □ □ ﴾ الأنبياء:٢٨، ولهذا حجزهم الله عن الاتصال بغير الأنبياء والمرسلين، كما قال عنهم: ﴿ □ ﴾ مريم:٦٤، ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الحجر:٨، فلو كان الرسل ملائكة لما أمهلوا أهل الضلال والفساد[1].

٣- أنه لو أرسل ملكا لما استطاعوا رؤيته على صورته الحقيقية، ولا نظر إليه أحد إلا صُعق، ولئن أعطاهم قوة يثبتون بها لرؤيته لكان في ذلك قضاء الأمر وانفصال النزاع، فضلا عما في ذلك من كشف الغطاء، وفوات الإيمان بالغيب[2]، ومن ثم عاد الأمر كما هو عليه الآن كما قال سبحانه: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الأنعام:٩، أي: في صورة

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٤٤/٧.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٢٦/٧، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، ٢٦٣/٧، ٢٦٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

الآدمي حتى يختلط بهم ويخاطبهم ويوجههم ويندمج معهم ويدعوهم، وحينئذ لا تكون هناك جدوى من اختياره ملكا بدل أن يكون رجلا؛ لأنه سيختلط عليهم، فيعترضون على ذلك الملك الذي لا يكون في مظهره إلا رجلا كمحمد – صلى الله عليه وسلم –[١].

٤- أنه لو كان الرسول ملكا لعجزوا أن يروه بكل حالاته التي يكون عليها البشر عادة من أكل وشرب ونوم ومشي وكلام وفعل، وبذلك تفوت القدوة.

ولهذا أمره أن يجيبهم بقوله: ٌ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ لج لح لخ لمَّ الإسراء: ٩٥، أي: كالآدميين من غير طيران، قاطنين في الأرض باتخاذهم لها قرارا كما فعل البشر لأرسلنا إليهم ملكا رسولا؛ لتمكنهم من التلقي منه لمشاكلتهم.

ولما كان ذلك غير ممكن كان مقتضى الحكمة أن يكون الرسل إليهم بشرا؛ لأن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم؛ إذ الشيء على شكله أفهم، وبه آنس، وله آلف، وبذلك بطلت شبهتهم في إنكار كون الرسول بشرا بأنه ما خرج عن عادة من قبله ممن كانوا مقرين بأنهم أنبياء، وبأن الجنس لا يفهم عن جنس آخر إلا بخارقة، وذلك لا يكون إلا مع الرسل[٢]، وكل غرضهم من ذلك نفي أن يكون النبي – صلى الله عليه وسلم – مبعوثا إليه[٣].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ١١١/٢، زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت:١٣٩٤هـ)، ٢٤٤٤/٥، دار الفكر العربي.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٤٢٧/٤، روح المعاني ١٦٣/٨، ١٦٤.

(٣) ينظر: روح المعاني ١٦٤/٨.

المطلب الثالث: اقتراح أن يؤتى بآبائهم الأولين

وقد جاء في موضعين:

١- قوله تعالى: (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) الدخان:٣٤-٣٩

٢- قوله: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) الجاثية ٢٤-٢٦.

في الموضعين يذكر سبحانه واحدة من ضلالات المشركين هي إنكارهم البعث بعد الموت والحياة الآخرة، فليس هناك من وجهة نظرهم بعث ولا نشور، وما هي إلا الموتة التي يموتها الناس، ولا حياة بعدها؛ لأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد أحد منهم.

كما أنهم جهلوا أنه ليس كل ما لا يحصل في الحال يجب أن يكون ممتنع الحصول مستقبلا، فكل واحد منا كان معدوما من الأزل إلى الوقت الذي حصل فيه، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان حصولنا ممتنعا، وذلك باطل بالاتفاق[١].

كما أنهم لا يدركون أن بعث الناس بعد الموت حلقة من حلقات النشأة البشرية، وأن لها هدفا عظيما، وحكمة بالغة هي المجازاة على ما كان في الحلقة الأولى؛ للوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التي تؤهلهم إليها أفعالهم الحسنة في حياتهم الأولى، والوصول بالعاصين الطغاة إلى النهاية الحقيرة المهينة التي تؤهلهم لها جرائمهم ومعاصيهم، فما خلق الله تعالى الكون عبثا، ولن يترك الناس سدى.

ومع ذلك نفوا جحودا وكفرا أن يكون بعد الموت حياة = بحجة أن الأموات السابقين لم يرجع منهم أحد[٢]، بعد أن جاءتهم الآيات البينات الواضحات (وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) الدخان:٣٣، (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) الجاثية:٢٥= وطلبوا الإتيان بآبائهم الذين ماتوا من قبل ليشهدوا بصحة البعث[٣]؛ إيذانا منهم بأنهم لا يصدقون بذلك وإن كثُر معتقدوه[٤]، وأنهم جازمون ومصرون على إنكاره من غير حجة ولا بينة ولا يقين بصحة القول الذي اختاروه من غير موجب حسب الظن والحسبان وميل القلب[٥].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٢٣/٢٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٥.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٣٢/٢٧، إرشاد العقل السليم ٤٦/٨، نظم الدرر ٧٧/٦، روح المعاني ١٢٥/٣.

(٤) ينظر: نظم الدرر ١٧/٦.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٣٢/٢٧.

وتلك سفسطة ناشئة عن توركهم ومغالطتهم واستهزائهم؛ لأن البعث الموعود به لا يحصل في الحياة الدنيا[١]، فضلا عن دلائله المبثوثة في الأنفس والآفاق.

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم في الدخان قويا عنيفا(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ) الدخان ٣٩ –٥٠

فقد رد في البداية انتفاء البعث **مستخدما الحجاج العقلي التداولي،** مبينا أن ذلك ينافي الحكمة؛ فإن الحكمة تقتضي أن يجازى كل فاعل على فعله، وألا يضاع ذلك، وإلا كان خلق الموجودات عبثا، **من خلال استخدام تعبير إنجازي موجه يربط الرد بباقي الكلام وبالسياق المحيط (السابق واللاحق)؛ ليحدث تغييرا جذريا في الموقف الفكري لدى المنكر،** ومن ثَمَّ قال توبيخا وردا على الذين أحالوا البعث واعتقدوا ما يفضي إلى جعل أفعال الحكيم لعباً(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)٣٨، ثم أكد ذلك بقوله:(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)٣٩ الذي يقتضي مكافأة كل بما يناسب عمله، ثم ذيَّل ذلك بما يشهد بجهلهم (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون)[٢]، ثم أكد الرد عليهم بما فيه وعيدهم الشديد، وتهديدهم بما هو منزل منزلة النتيجة من الاستدلال (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)٤٠، ٤١[٣]، ثم عقب ذلك بذكر مشاهد من عذابهم والتنكية بهم تهكما واستهزاء(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ)٤٣، (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)٤٩، ثم يبكتهم مذكرا إياهم إنكارهم القديم (إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ) ٥٠

وكل هذا يتلاقى مع إلهابهم تنطُّعا بعظمتهم في عرض مقترحهم بقولهم: (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٤] الدال على توركهم في استبعاده.

كما أنه يتلاقى مع تعنتهم وجحودهم وعدم ارتداعهم بوعيد الآخرة، وقصر نظرهم على ما هم عليه في الدنيا من النعمة والقوة المفاد من قوله قبل آية إنكارهم البعث التي تسبق اقتراحهم مباشرة ((وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ)الدخان:٣٣.

وبذلك ينتظم سلك الكلام آخره بأوله في تلاق بديع وتناسق معجب وتلاؤم فريد.

أما آية الجاثية فإن الرد فيها – على قوته وشدته – أخف وطأة منه في الدخان؛ إذ اكتفى بالحديث – بعد إثبات البعث – عن خسران

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٣١٠/٢٥، ٣١١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٣١١/٢٥.

(٤) ينظر: نظم الدرر /٧٧.

المبطلين يوم القيامة، ومجازاة كل بما عمل إجمالا، من دون ذكر مشاهد العذاب الوارد تفصيلا في الدخان، معتمدا أيضا على **الحجاج التداولي من خلال التعبير بالفعل الإنجازي (قل) الذي ربط الرد بالسياق وباقي الخطاب،** حيث جاء الرد بقوله: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ...) الآيات ٢٦- ٣٧.

فضلا عن نقض اقتراحهم قبل إيراده بقوله:(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ) أي: ما كان منهم إلا أن أتوا بما توهموه حجة حسب اعتقادهم، وهو ليس بحجة ألبتة، ولا عندهم غيرها.

وفي ذلك تسجيل عليهم بالتلحلح عن الآيات البينة والمصير إلى سلاح العاجز، من المكابرة والخروج عن دائرة البحث[١]، فغطَّى الجحود والعناد على عقولهم، وأبعدهم عن إدراك الحق البين الواضح.

ثم أعقبه بالرد الصريح الذي يبطل قولهم بطريق الإجمال والمعارضة، عن طريق **الحجاج التوجيهي القائم على ذكر دليل البعث المبني على فعل التوجيه لإيصال الحجة إليهم، من خلال إيضاح المعنى وتوصيل المعرفة لجعل المنكرين يتقاسمون الاعتقاد بثبوت البعث مع المؤمنين،** (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ)، أي: لا ريب في وقوعه بما يقتضيه من إحياء الموتى؛ لكثرة دلائل إمكانه؛ إذ هو بالنسبة لقدرة الله ليس أعجب من بدء الخلق، ثم إن الله أخبر بوقوعه فوجب القطع به، أما الشك فيه فهو جدير بالاقتلاع وكأنه معدوم[٢]، (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) دلائل وقوعه، ولا يلوح لهم ذلك مع ما له من الظهور والوضوح[٣].

وفحوى الرد كما ذكر الرازي: أنه لما ثبت أن الإحياء من الله تعالى، وأن الإعادة مثل الإحياء الأول، وأن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أن الله قادر على الإعادة وأنها ممكنة في نفسها، وأن القادر أخبر بوقت وقوعها، فوجب القطع بكونها حقة[٤].

وبعد أن احتج بكونه قادرا على الإحياء وبعث الخلائق عمَّ الدليل فقال:(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: القدرة الكاملة على جميع الممكنات، وإذا ثبت ذلك وثبت أن الإحياء والبعث ممكن – إذ لو لم يكن ممكنا لما حصل في المرة الأولى– لزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرا على الإحياء في المرة الثانية[٥]، فكان ذلك في قوة الرد على إنكارهم إياه.

ثم عقَّب ذلك بإنذار الذين أنكروه من سوء

---

(١) ينظر: روح المعاني١٣/١٥٢، التحرير والتنوير٢٥/٣٦٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر٧/١٠٦، التحرير والتنوير٢٥/٣٦٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر٧/١٠٧، التحرير والتنوير٢٥/٣٦٥.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم٢٧/٢٣٢، روح المعاني١٣/١٥٢.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٧/٢٣٣.

عاقبتهم فيه، بذكر بعض تفاصيله وما يكون فيه تأكيدا لوقوعه وردا على إنكاره أو استبعاده، فقال:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ...) ٢٧-٢٩.

ثم يوبخهم على إنكارهم، ويقررهم بجرمهم واستكبارهم، ويذكرهم بعنادهم في (أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) ٣١، ٣٢

ثم يبكتهم تنكية واستهزاء مقابل استهزائهم في الدنيا (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)٣٣-٣٥، مع ما يلحظ من إبعادهم وتحقيرهم المأخوذ من الالتفات عنهم إلى الغيبة في أكثر من موضع في الآيات.

المطلب الرابع: اقتراح نزول ملك

وقد جاء في أربعة مواضع، هي:

1- قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الأنعام:٨

2- قوله تعالى: ﴿ تى تي □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الحجر: ٧

3- قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ني □ ير □ ين □ □ □ □ □ □ □ □ بجبح بخ بم به تج تح تخ تم ته ثم □ جم □ حم □ خم □ سم □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الفرقان: ٧ – ١٠

4- قوله تعالى: ﴿ لم لى لي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ نم نى □ □ □ □ □ □ □ □ □ يم يى □ □ □ □ ﴾ الفرقان: ٢١ – ٢٢

وفيها جميعها اقترحوا نزول ملك أو ملائكة عنادا وتورُّكا، أي: لولا أنزل عليه ملك نشاهده أو ملائكة نراهم ويخبرونا بصدقه؛ لأن ذلك هو الذي يطلبه المعاند الذي لا جدوى في محاولات اقتلاع عناده.

وقد اشتركت جميعها في افتتاح مقترحهم بأداة التحضيض – (لوما) في الحجر ١٠، (لولا) في بقيتها– المستعمل في التعجيز حسب اعتقادهم[١]؛ لبيان توغلهم في التكذيب والكفر، وتفننهم في العناد والمكابرة والاستهزاء تصلبا في شركهم وإصرارا عليه، حيث لا يتركون وسيلة

[١] ينظر: التحرير والتنوير ٢٤/٦.

من وسائل التنفير من الإيمان إلا توسلوا بها[1].

والتنبيه على أن اقتراحهم إنزال الملائكة أصرح أوجه قدحهم في نبوته، وأنه من أباطيلهم المحققة، وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيَّت بهم العلل[2].

وهي جميعها واردة في سياق ممتد من ضلالاتهم وعنادهم واستهزائهم ولجاجتهم، فآية الأنعام: ٧ واردة في سياق مشحون بجحودهم وشكهم وتكذيبهم وإعراضهم واستهزائهم من مفتتحها: ﴿ لخ لم لى لي ... نم نى ﴾ الأنعام: ١، وبعدها: ﴿ ... ﴾ الأنعام:٢، ثم قوله: ﴿ بي تر ... تن تى تي ...﴾، ثم قوله: ﴿ ... ﴾ الأنعام: ٤ – ٥، ثم قوله: ﴿ جم ... سم ... ﴾ الأنعام: ٧، ما يشهد بتوركهم وعنادهم وعدم جدوى محاولات هدايتهم.

وكذلك آية الحجر فقد وردت بعد قوله: ﴿ ... بن بى بي تر ...﴾ الحجر:٦، الدال على استهزائهم وتوغلهم في التكذيب والكفر والجحود، والمسبوق بما يشهد على انهماكهم في الملذات والآمال: ﴿ ... يم ﴾ الحجر:٣، والمتلو بما يصرح باستهزائهم: ﴿ ... بج بح بخ ﴾ الحجر:١١.

ومثلهما آيتا الفرقان:(٧،٢١)، فالأولى وردت بعد قوله: ﴿ لخ لم لى لي ... نم نى ... ﴾ الفرقان:٣، الذي ينبئ عن جحودهم وعنادهم واستهزائهم وإصرارهم على الكفر، ثم تمادوا في الهزء والإنكار فقالوا: ﴿ يم يي ... ﴾ الفرقان:٤ ثم بالغوا في العناد فقالوا على القرآن ﴿ ... بن بى بي تر ... ﴾ الفرقان:٥ حتى وصلوا إلى التورك بالتقليل من شأنه – عليه السلام – ولمزه في معيشته: ﴿ ... ﴾ الفرقان: ٧ بقصد الاستهزاء منه، وبيان أنه ليس أهلا للرسالة، ثم وصل الأمر بهم إلى التحدي والتعجيز بطلب ملك لتصديقه والشهادة برسالته: ﴿ ... نى ني ... ير ين ... بجبح بخ بم به تج تح تخ تم ﴾ الفرقان:٨،٧، واستمر السياق في بيان جحودهم وكفرهم ﴿ ... ... ﴾ الفرقان:١١، ﴿ ... بج بح بخ ﴾ الفرقان:١٨، ﴿ به تج تح تخ ﴾ بعد ذلك جاء الموضع الثاني: ﴿ لم لى لي ... نم نى ... ﴾ الفرقان: ١٨ – ٢١.

وسبب اقتراحهم نزول ملك ما يلي:

١- أنهم عدُّوا اتباع البشر أمرا قبيحا، وخسرانا مبينا: ﴿ ... ين ... ﴾ المؤمنون: ٣٤، وقالوا: ﴿ ... ﴾ القمر: ٢٤

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧/٦.

(٢) ينظر: روح المعاني ٩١/٤، ٩٢، ١٣/١٣.

٢- استهزاؤهم واستحقارهم الرسل: ﴿ لخ لم لى لي ﴾ الأنبياء:٣٦، و: ﴿ بخ بم به تج تح تخ تم ته ثم جم ﴾ الفرقان: ٤١، و ﴿ بج بح بخ بم به تج تح تخ تم ته ثم جم خم سم ﴾ المؤمنون:٢٤ -٢٥، و: ﴿ نى ني ير ﴾ المؤمنون:٣٣

٣- حسدهم وحقدهم وغيرتهم وتكبرهم وخوفهم على مكانتهم: ﴿ تن تى تي ﴾ المؤمنون:٤٧، وقولهم: ﴿ بخ بم به تج تح تخ تم ته ثم ﴾ الزخرف: ٣١.

الرد عليهم:

أما الرد عليهم فقد استخدم فيه **الحجاج البرهاني العقلي، فجاء مفحما مسكتا، مبطلا أوهامهم، كاشفا مكنون صدورهم، فاضحا مراداتهم من اقتراحاتهم، وأنه ليس إلا التعجيز والاستهزاء، وأنهم ما قالوه إلا عن يقين منهم أنه لن يكون**، ولذلك جاء الرد في الأنعام على وجهين؛ لأن ما اقترحوه إما أن يكون على ظاهر كلامهم، والمقصود به الاستدلال على صدق نبوته، أو يكون تعجيزا وعنادا، وتهكما واستهزاء.

فإذا كان على ظاهره فلا يخلو إما أن يكون على صورته، أو لا[١]، فإذا كان على صورته فذلك الوجه الأول، وردُّه في قوله: (ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر...)، أي: لو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضي أمر هلاكهم؛ لأن الملائكة غير الذين سخرهم الله للأمور المعتادة (مثل الحفظة، وملك الوحي، وملك الموت...) لا تنزل إلا لتأييد الرسل بالنصر على مكذبيهم وإنزال العذاب بهم؛ لأن الله فطرهم على الصلابة والغضب للحق بدون هوادة، وجعل الفطرة الملكية سريعة في تنفيذ الجزاء على وفق العمل (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، (وما ننتزل إلا بأمر بك)، وقال عنهم: (ما ننزل الملائكة إلا بالحق)، ولذلك قالوا للوط: (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك)، ولما جادلهم إبراهيم قالوا: (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك)، والمعنى: أن ما اقترحوه لو وقع لكان سيء المغبة عليهم[٢]، ولم يكن بد من هلاكهم؛ لأنه إذا زال الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة وجب إهلاكهم، أو لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته الحقيقية زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون[٣].

وليس المراد أن سبب عدم إنزال الملك الرحمة بهم؛ لأن الله لا يظهر آياته بناء على اقتراح الضالين، ولا الرسول – صلى الله عليه وسلم – مبعوث للتصدي لرغبات المقترحين، ولو كان كذلك لرام كل من عُرضت عليه الدعوة أن تظهر له آية حسب مقترحه، ولتحول الرسول إلى مشعوذ يلتف حوله الناس، ولضاعت مدة الإرشاد حول المقترحات، وهذا ما ينافي حرمة

(١) ينظر: نظم الدرر ٢/٥٩٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٦/ ٢٥، ٢٦.

(٣) ينظر: الكشاف ٢/٩، نظم الدرر ٢/٥٩٢، روح المعاني ٤/٩٢، ٩٤.

النبوة والهدف منها[١]

وإذا كان على غير صورته فرده في قوله: (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون).

فهو جواب ثانٍ عن مقترحهم، فيه ارتقاء في الجواب؛ لأن مقترحهم يستلزم الاستغناء عن بعثة البشر لأن دعوتهم غير مقبولة إلا إذا قارنه ملك كما قالوا في هذا الموضع وفي قوله حكاية عنهم: (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) المؤمنون:٢٤، فجاء هذا الجواب الثاني صالحا لرد الاقتراحين، لكنه روعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى اللازم لكلامهم، فاصطفى الفعل (لو جعلناه) أي: لو صيرنا الرسول ملكا (لجعلناه رجلا) أي: لتعين أن يكون في صورة الرجل؛ ليطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد – صلى الله عليه وسلم – ولشكوا في كونه ملكا وكذبوه؛ لأن دأبهم طلب الخوارق استدلالا بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق.

وجملة: (وللبسنا عليهم ما يلبسون) من تمام الحجة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك[٢].

أما إذا كان ما اقترحوه تهكما واستهزاء، وتعجيزا وعنادا، على غير ظاهره من طلب الدليل، فذلك هو الوجه الثاني، وجوابه بتسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – وتهديدهم في قوله: ُ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ نم نى □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ً الأنعام:١٠، والمقصود تأكيد ما تفرَّع عنه وهو ُ□ □ □ □ □ □ □ □ □ ً؛ لأن حال المشركين حال من يتردد في أن سبب هلاك الأمم السالفة هو الاستهزاء بالرسل؛ إذ لولا ترددهم لأخذوا الحيطة والحذر لأنفسهم ونظروا في دلائل صدق النبي، وما أعرضوا عنه ليستبرئوا لأنفسهم من عذاب متوقع، أو لأنهم نزلوا منزلة من يتردد؛ لعدم جريهم على موجب علمهم.

واصطفاء فعل (حاق) الدال على الإحاطة؛ لإفادة تمكن ذلك وعدم إفلاته أحدا منهم[٣]، أي: حاق بهم عاقبة استهزائهم.

ثم زاد في تهديدهم بتوجيه أذهانهم إلى عواقب المكذبين قبلهم في قوله: ُ يي □ □ □ □ ُ ٍ ٍ ً ُ ً الأنعام:١١، فهي سلسلة ردود على ضلالاتهم المحكية آنفا، المتضمنة التصميم على الشرك وتكذيب الرسالة، الجارية على سنن ضلالات نظرائهم من السابقين، ولهذا افتتحت بـ (قل) ؛ لأنها واردة مورد المحاورة على قولهم: ُ □ □ □ نىَّ[٤].

أما آية الحجر: ٧، فالرد فيها متساوق مع مقترحهم بشقيه:

التعجيزي المأخوذ من تعنتهم بطلب نزول الملائكة لتصديقه.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٦/ ٢٥، ٢٦.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٢/٥٩٢، روح المعاني ٤/٩٤، ٩٦، معالم التنزيل ٢/١١١، التحرير والتنوير ٦/ ٢٦، ٢٧، زهرة التفاسير ٥/٢٤٤٣.

(٣) ينظر: روح المعاني ٤/٩٦، ٩٧، التحرير والتنوير ٦/٢٩.

(٤) ينظر: روح المعاني ٤/٩٧، التحرير والتنوير ٦/٢٩، ٣٠.

والتهكمي المأخوذ من: ُ □ □ بن بى بي تر □ □ً؛ ولهذا جاء الرد ممتدا تلاقيا مع سياق الاقتراح الممتد، بادئا الرد بإزالة شبهتهم ودحض عنادهم وجهالتهم إذ طلبوا نزول الملائكة وإن كان بطريق التهكم، **ولهذا كان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم وهو لون من ألوان الحجاج التقويمي؛** لتعليمهم التمييز بين آيات الرسل وآيات العذاب(١)، عن طريق بيان أن الملائكة لا تنزل إلا بالحكمة والفائدة والحق، وليس ثمة فائدة في مشاهدتهم الملائكة وهي تنزل من السماء حيث يبتغي المشركون(٢)، كما أنهم على فرض نزولهم لو نزلوا لكانوا على صورة البشر، وعليه فلا جدوى من نزولهم.

فالجملة مستأنفة ابتدائية جوابا لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم، أي: لو نزلت الملائكة إذن ما كنتم منظرين بالحياة، ولعجل لكم بالاستئصال؛ إذ الملائكة لا تنزل إلا مصاحبة للعذاب الحاق على المكذبين(٣)، كما فعل بأضرابهم من الأمم السالفة المكذبة المستهزئة، ولو فعل ذلك لأنتجت مقدمتهم أو مقترحهم نقيض مطلوبهم، ولما كانوا مؤخرين(٤).

ثم ثنَّى برد استهزائهم في قولهم: ُ □ بن بى بي تر □ □ً بقوله: ُ □ □ □ □ □ □ □ ً الحجر:٩(٥)، فقد سموه تنزيلا تهكما واستهزاء؛ لتأكيد كذبهم(٦).

وقد جاء نشر الجوابين على عكس لف المقالين؛ حيث جاء الاستهزاء مقدما ورده متأخرا، بينما جاء طلبهم إنزال ملك متأخرا ورده متقدما، فبدأ برد المقال الثاني بما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام لشدة استدعائه للجواب(٧)، ولأنه أقرب، ثم ثنى العنان إلى رد تعريضهم واستهزائهم بسؤالهم رؤية المك(٨)، ثم امتد الرد عليهم تسليةً للنبي – صلى الله عليه وسلم – عن استهزائهم ُ ني □ ير □ □ ين □ □ □ □ □ □ بج بح بخ ً الحجر:١٠، ١١، ثم تهديدهم بقوله: ُ به تج تح تخ تمً الحجر: ١٢، ثم زاد في بيان تعنتهم وتحجر عقولهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر بقوله: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ُ ثم □ جم □ حم □ خم □ □ سم □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ً الحجر:١٣– ١٥.

أما قوله: ُ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ى ني □ ير □ ين □ □ □ □ □ □ □ □ بجبح بخ بم به تج تح تخ تم ثم □ جم □ حم □ خم □ □ً

الفرقان: ٧–٩، التي بدأت باستفهام تعجبي

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٣/١٤.

(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ٥٣٥، إرشاد العقل السليم ٥/٦٨، روح المعاني ٧/٢٦٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١٣/١٥.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ٥/٦٨

(٥) ينظر: الكشاف ٢/ ٥٣٥.

(٦) ينظر: نظم الدرر ٤/٢٠٦، ٢٠٧.

(٧) ينظر: إرشاد العقل السليم ٥/٦٧، روح المعاني ٧/٢٦٠.

(٨) ينظر: التحرير والتنوير ١٣/١٧.

إنكاري عن أكله – صلى الله عليه وسلم – ومشيه في الأسواق، وليس الغرض منه إنكار ما وقع من الرسول من الأكل والمشي في الأسواق، إنما الغرض منه إنكار وقوع الرسالة المنافية له في زعمهم[١]، والتعبير باسم الإشارة القريب (هذا) استهانة واستهزاء، وإطلاق لفظ الرسول عليه سخرية وتهكم، أي: الذي يزعم أنه كذلك[٢]، وهذا ما يعبر عن حالتهم النفسية التي تنكر كون الرسول بشرا كسائر البشر، يفعل أفعالهم، ويتصف بصفاتهم، فهم يعتقدون أن من كان مثلهم في البشرية لم يكن بمثابة أن يُتَّبع ويطاع ويُنتهَى إلى أن يأمر ويصدق أنه مبعوث من عند الله، وأنهم مأمورون بطاعته[٣].

وقد جاء اقتراحهم متعددا ترقوا فيه من الأعلى إلى الأدنى؛ إذ ذكروا بداية أنه يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والشرب والتعيش، ثم نزلوا إلى أن يكون إنسانا معه ملك يسانده الإنذار والتخويف، ثم نزلوا إلى أنه إن لم يكن مرفودا بملك فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا واقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كالمياسير، أو يأكلون هم منه في دنياهم ومعاشهم[٤].

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم مطولا متنوعا ابتدأه بالتعجيب من خطلهم وتجهيلهم، ولهذا أضرب عن إجابة الاقتراح الأول، واكتفى عنه بهذا التعجيب؛ لظهور منافاته للحكمة التشريعية، والتنبيه عن خروجه من دائرة العقل[٥].

وقد جاء على جزأين:

الأول: قوله: ﴿ثم جم حم خم﴾ الفرقان:٩

الذي اعتمد الحجاج فيه على فعل الأمر (انظر) وهو من الأفعال الإنجازية التي تهدف إلى توجيه المتلقي لسلوك معين، حيث طلب من المتلقي النظر والتدبُّر والرجوع إلى نفسه، ومن ثَمَّ اكتسب بعدا حجاجيا؛ لتضمنه الدعوة إلى التأمل المفضي إلى نتيجة ضمنية توصل إلى استعظام الأباطيل التي اجترأوا على التفوه بها، والتعجيب منها، أي: كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال!!!، فالمسار الحجاجي هنا يتمثل في الحجة (انظر)، والنتيجة (فضلوا) أي: عن طريق المحاجة دون تعقل، وسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم[٦].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٠٤/٦.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٢٩٨/٥.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ١٢٢، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٤) ينظر: الكشاف ٢٧٠/٣، نظم الدرر ٢٩٨/٥ وما بعدها، روح المعاني ٤٢٨/٩.

(٥) ينظر: روح المعاني ٤٢٨/٩.

(٦) ينظر: نظم الدرر ٢٩٩/٥، روح المعاني ٤٢٨/٩، ٤٢٨/٩، التحرير والتنوير ١٩/١٩.

الثاني: دحض باطلهم في قوله: ﴿ سم ... ﴾ الفرقان: ١٠.

وفيه يرُدُّ عليهم موجها الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – لتثبيته وتثبيت المؤمنين، والجملة مستأنفة للرد على اقتراحهم أن تكون له جنة يأكل منها، من خلال بيان أنه تعالى لو شاء لجعل له جنات وقصورا خيرا مما اقترحوا، وفي ذلك تبكيت لهم، وقطعٌ لمجادلتهم[١]، عقّبه ببيان السبب الحقيقي لكفرهم وتكذيبهم وعنادهم بالإضراب عن كلامهم بما فيه تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – أي: لا تظن أنهم كذبوا بما جئت به لأنهم يعتقدون فيك كذبا أو افتراء للقرآن، أو نقصا لأكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، أو في شيء من أحوالك، فدع التفكير في ذلك، إن السبب الحقيقي الذي جرأهم على لعناد هو تكذيبهم بالساعة[٢] ﴿ ... ﴾ الفرقان: ١١، ثم عاد إلى رد شبهة عدم صلاحية البشري للرسالة تهكما واستهزاء به فقال: ﴿ ... ﴾ الفرقان: ٢٠، الذي يبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل، وأنهم جميعا كانوا كذلك، وأنها سنة الله وطبيعة هذه الحياة، وأن ما قالوه فاسد؛ لأنه لم يدعِ واحدٌ من أتباعه أنه هو ولا أحد الأنبياء قبله يباين البشر، ولا أن وصفا من أوصاف البشرية الذاتية ينافي الرسالة والنبوة، وأما الاستكثار من الدنيا فهو في الأغلب عائق عن السفر إلى دار السلامة، وحامل على التجبر، ولا يفرح به إلا أدنياء الهمم[٣] كما أن خفة ذات اليد – وقد شرَّف الله نبيه بما له من صفات الكمال والأخلاق العالية – لا تقدح فيه؛ لأنه لم يدع أنه ملك من الملوك[٤]، وذلك منهم علامة على ركاكة عقولهم، وقصور بصائرهم على المحسوسات؛ إذ لم يفهموا أو يدركوا أن تميز الرسل على غيرهم إنما هو بأمور نفسانية، لا بأمور جسمانية[٥].

أما آية الفرقان الثانية: ﴿ لم لى لي ... نم نى ... ﴾ الفرقان: ٢١، ففي التعبير عنهم بـ (الذين لا يرجون لقاءنا) تعجيب من تناقض مداركهم وتخبطهم وضلالهم استكبارا عن الحق؛ حيث طلبوا رؤية الله ونزول الملائكة عليهم في الدنيا، وأرادوا تلقي الدين من الله مباشرة أو الملائكة، وفي الوقت ذاته هم مكذبون بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكة[٦]، ولهذا جاء الرد بالتعجيب من جهلهم وتكبرهم وغرورهم الباطل ﴿ ... ﴾ لما طلبوا رؤية الله ﴿ ... ﴾ جاوزوا الحد بطلبهم رؤية

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠/١٩.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٣٠٢/٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٢٩٨/٥، ٢٩٩.

(٤) ينظر: معالم التنزيل ٤٣٥/٧، تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين،٥/٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) ينظر: روح المعاني ٤٢٧/٩.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٣٢/١٩، الكشاف ٢٧٧/٣. ٢٧٧/٣.

الملك الجبار[١].

فقد اعتمد الحجاج هنا على التأكيد بالقسم، الذي عضده بالأفعال الإخبارية (استكبروا، وعتوا) التي تؤكد كفرهم وعدم انسجام حالهم مع منطق التلقي، حيث تقتضي إقامة الحجة على المنكر أن يعرف أولا ما يمكن له أن يطلب وما لا يمكن، وهنا تبرز قيمة فعل الكلام الخبري.

والجملة مستأنفة جوابا عن قولهم، والتأكيد بلام القسم؛ لإفادة معنى لتعجيب، ثم عقب هذا التعجيب بالرد على مقترحهم بوعيد فيه حصول بعض ما طلبوا ُ □ يم يي □ □ □ □ ٌ ً ٍ ً ّ ٢٢، لكنها رؤية سوء، أي: إنهم سيرون الملائكة، لكنها رؤية تسوؤهم عندما يسوقونهم إلى النار، وفي ذلك ما فيه من التهكم بهم ردا على تهكمهم وتوركهم الذي امتد في السياق، لأن أوله مُطمِعٌ بالاستجابة، أما آخره فمؤيس بالوعيد الشديد[٢].

ثم زاد في تأييسهم من الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم، ودفع احتمالية نجاتهم بقوله: ُ ً □ □ □ □ □ □ □ □ برَّ الفرقان: ٢٣، ثم قابل حالهم بحال المؤمنين تنكية لهم وتهكما بهم[٣].

المطلب الخامس: اقتراح إنزال كتاب عليهم.

وقد جاء في موضعين:

١_ قوله تعالى: (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا) النساء: (153)

٢- قوله تعالى: (وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا...) الإسراء (٩٠_ ٩٥)

الآية الأولى وردت في سياق توبيخ اليهود، وفضح معاذيرهم في إنكار بعثة النبي _صلى الله عليه وسلم _ أعقبه الحديث عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتابا من السماء[٤]، وكشف خبايا نفوسهم وما أرادوه من بث الفرقة[٥] والتثبيط عن الإيمان؛ إذ وجهوا مكايدهم بهذه الشبهة، فقال بعضهم للنبي _ صلى الله عليه وسلم _: إن كنت نبيا فأتنا بكتاب من السماء نعاينه حين ينزل، كما أتي موسى بكتابه[٦]، أو

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٥/٣١٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير١٩/٣٣، تفسير القرآن العظيم، عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي، ٦/١١، دار القاسم للنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأول ى١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير١٩/٣٥، ٣٦.

(١) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)،٤/٣٠٠، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ٢/٣٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٢/٣٤٤.

كتابا إلينا بأعياننا بأنك رسول الله[١]، فأنزل الله الآيات مبينا كفرهم، موبخا وداحضا شبهتهم، ومحذرا من الانجرار وراءهم[٢].

وفي ذكر مقترحهم على سبيل الحكاية عنهم توهينٌ له، وإبعادٌ لهم، ينبئ عن توبيخهم وتحقير اقتراحهم، وعدم وجاهته، وأن مرادهم منه ليس إلا إرادة الفرقة وإضلال الناس.

والتعبير بلفظ المضارع (يسألك) للدلالة على تكرار السؤال والإلحاح بقصد الإعنات والتحكُّم[٣]، وبيان أنهم أهل جدال، وأن ديدنهم الكفر، وأنهم أعرق الناس في غلظ الأكباد وجلافة الطباع، وأن هذا متأصل فيهم، فقد تعنَّتَ أوائلهم على ما يدَّعون الإيمان به الآن[٤]، الآن[٤]، فضلا عما فيه من استحضار تلك الصورة في الأذهان[٥].

واصطفاء التعبير عنهم بـ (أهل الكتاب) زيادة في توبيخهم وتبكيتهم؛ لأن العالم ينبغي أن يكون أبعد الناس عن التمويه والتعنت والمكايدة بالشُّبَه الباطلة والكذب الصريح[٦].

وذكر القيد (من السماء) في مقترحهم، والنصُّ عليه مع العلم به وعدم الحاجة إلى ذكره إيغال في التعنت واللجاجة باستطالة الكلام، والتمويه بمظهر القوي المحق في كلامه.

وطلبهم إنزال كتاب من السماء جملة واحدة ليعاينوه، أو بأسمائهم حتى يصدقوه ويؤمنوا برسالته – فضلا عن دلالته على جحودهم وتعنتهم كما سبق – ينبئ عن جهل المقترحين وضعفهم الفكري، وأنهم لم يتعقلوا الأمر أو يتدبروه حتى يتبين لهم ما فيه من الخطأ ثم لا يتبعوه من أجل ذلك، ويبين أن كل ما كان منهم وما صدر عنهم إنما هو تعليق إيمانهم الممكن على شيء مستحيل بقصد المجادلة والعناد؛ مبالغة في عدم وقوعه.

وهو لون من ألوان الحجاج العقلي الذي استخدمه اليهود في مواجهة دعوى الرسل بطريقة جدلية، وقد اشتهر عنهم ذلك، وهو ما أطلق عليه الإمام الزركشي إبراز الكلام في صورة المستحيل على طريق المبالغة[٧] في إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع؛ ليمتنع وقوع المشروط[٨].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى(ت٩٨٢هـ)٢٤٩/٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٣٤٤/٢.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٤٩/٢، التحرير والتنوير ٣٠٠/٤.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٣٤٥/٢.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠٠/٤.

(٦) ينظر: نظم الدرر ٣٤٥/٢.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم٣،/٤٧، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه

(٨) ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (ت: ٦٥٤هـ)، ١٥٢/١، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية

أما الرد عليهم فقد جاء مسكتا مفحما على وجازته؛ إذ جاء معدولا عما يقتضيه الاقتراح؛ دلالة على أنه للإعنات لا للاستبصار، فقد طلبوا أن ينزِّل عليهم كتابا من السماء...، ولم يكفهم ما شاهدوه وسمعوه من الآيات البينات التي هي أعظم مما طلبوا، فضلا عما أخبرتهم به كتبهم كما حكى الله تعالى عنهم: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ) البقرة:١٤٦، ولكنه العناد والتعنت ومحاربة الحق (وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون) البقرة:١٤٦

وجاء الرد معدولا عنه؛ لينبئ عن إهمالهم، وزيف كلامهم، وضعف حجتهم، والاستخفاف بهم، وتحقير مقترحهم، واستنكاره، والتعجيب منه، فضلا عن تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم _، والتسرية عنه، وتصبيره على شططهم بألا يعبأ بما اقترحوه؛ لأن ديدنهم التعنت، وكأنه يقول له: دعك من مقترحهم هذا وغيره؛ لأنهم إن جحدوا الآيات الباهرة المتكاثرة على صدق دعوتك– وكفى بالقرآن وحده_ ولم يعتدوا بها كان ذلك موضعا للتعجيب منه واستنكاره، ومدعاة لإهمالهم وترك الرد الصريح عليهم؛ لأنه لا سبيل لاهتدائهم.

ولهذا جاء الرد بجملة (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) إشارة إلى أن ديدنهم التعنت واقتراح الآيات، كما فعل أسلافهم مع موسى – عليه السلام – بعد ما جاءهم بالبراهين الحسية، فقالوا: أرنا الله جهرة، وسألوه ما ليس لهم[1].

ففي الرد عليهم بغير ما يقتضيه اقتراحهم ما يلي:

١- تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – وطمأنة قلبه بأن أنبياء الله قد طُلب منهم مثل ذلك وأكثر.

٢- إفحام لهم، وتوبيخ وتبكيت واستنكار وتعجيب من مقترحهم، وتجهيلٌ وتسفيهٌ لعقولهم،

---

(١) ينظر: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري١/٥٤٠، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، مختصر تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، عبد الله بن أحمد بن علي الزيد ٢١٢/١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت:٧١٠هـ)، ٤١١/١، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، والتسهيل في علوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت:٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي ٢١٥/١، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٦هـ، وفتح القدير ٦١٤/١، فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت:١٢٥٠هـ)، ٦١٤/١ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٤هـ، وتفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت:١٣٥٤هـ)، ١١/٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م.

المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

وكأنه يقول لهم: كان الأولى وأنتم أهل كتاب ألا تطلبوا مثل ذلك، وألا تعلقوا إيمانكم عليه، وبما أنه قد حدث فلا تبال بسؤالهم[١]؛ لأنه والعدم سواء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك(رؤية الله جهرة) فأخذتهم الصاعقة بظلمهم وتعنتهم، ثم امتنَّ الله عليهم وأعادهم غير أنهم لم يتعظوا، وظل التعنت والمجادلة أصلا راسخا فيهم توارثوه فيما بينهم.

٣- الدلالة على أن الرسل لا تجيء بإجابات مقترحات الأمم بناء على الأهواء، وإنما تأتي بالمعجزات بإرادة الله تعالى وكما شاء، ولو أجاب الله كل المقترحين لأصبح الرسل كالمشعوذين (أستغفر الله) الذين يتلقون مقترحات الناس في المحافل والمجامع...، وهذا ما يحط من قدر المرسَل[٢] والرسالة معا.

وفي ذكر ما لحقهم من سؤالهم الرؤية (فأخذتهم الصاعقة) تهديد وزجر[٣] ووعيد للمتعنتين، والقيد (بظلمهم) تسفيه لهم، وبيان لجحودهم وجهلهم بهذا الطلب بعد ما بين لهم رسولهم صفات ربهم وعدم قدرتهم على ما يطلبون.

٤- **في الرد عليهم ببيان ما حدث من آبائهم احتجاج واستدلال على حالهم بحال أسلافهم (حجاج بالتمثيل) من خلال استقراء حالين تشابهت مقدمتهما بقصد استنباط واستنتاج نهاية الثانية (حالهم) من خلال النظر إلى نهاية نظيرتها(حال أسلافهم)، من قبيل الاستدلال بأخلاق الأمم والقبائل على أحوال العشائر منهم**[٤]؛ تسرية وتسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم_، أي: إن تستعظم ما سألوك فقد سأل آباؤهم موسى – عليه السلام – لغير داع سوى التعنت – الأمر العظيم، فقالوا: أرنا الله عيانا من غير ستر ولا حجاب ولا نوع من خفاء، بل تحيط به أبصارنا كما يحيط السمع بالقول الجهر[٥]، وهو ما تسبب عنه أخذهم بالصيحة أخذ قهر وغلبة..

٥- ما فيه من دلالة على جهالتهم المتأصلة فيهم، وعنادهم وجدالهم الذي لهم فيه عرق راسخ ممتد من أسلافهم.

أما الرد عليهم صراحة على ما يقتضيه الاقتراح فقد جاء في غير هذا الموضع، وذلك في قوله تعالى: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ" الأنعام: ٧، الشاهد بأن مقترحهم ليس لطلب الدليل أو الوصول إلى الإيمان، إنما هو على سبيل التعنت والعناد ومعاداة الحق، فهي تبيِّنُ أنه لو أتاهم بكتاب مكتوب في ورق فلمسوه بأيديهم= – زيادة على رؤيته – زيادة في التعيين، ودفعا للتجوُّز – لا رأوه فقط – حتى لا تبقى لهم علة ليقولوا: إنما سكِّرت أبصارنا= لظلوا على كفرهم، وقالوا تعنتا وجحودا وعنادا: (إن هذا إلا سحر مبين) [٦]، أي : تمويه واضح

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢/٢٤٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٤/٣٠١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٤/٣٠١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٤/٣٠٠، ٣٠١.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٢/٣٤٥.

(٦) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ) ٢/٦، دار الكتاب العربي –

ظاهر، وخيال لا حقيقة له، كما يفعل السحرة، فيعللون الناس بالباطل، ويشبهونه في صورة الحق، ويقلبونه عن جهته[١].

وتخصيص اللمس في (فلمسوه بأيديهم) لأنه يتقدمه الإبصار، ولأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم إذا تركوا العناد والتعنت أن يقولوا: (إنما سكرت أبصارنا) [٢].

وذكر ابن المنير أن فائدة زيادة لمسهم بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أي: لو نزلناه كما طلبوا فقرأوه وهو بأيديهم، لا بعيدا عنهم لما آمنوا[٣].

وكل هذا وغيره يشهد يقينا وبما لا يدع للشك مجالا أن طلبهم سببه التعنت والعناد ومعاداة الحق بهدف التمويه على الناس وصدهم عن الإيمان.

المطلب السادس: اقتراح نزول آية

وقد جاء ذلك في سبعة مواضع كما يلي:

١- (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) الأنعام:٩

٢- (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنعام: ١٠٩

٣- (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) يونس:٢٠

٤- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد: ٧

٥- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) الرعد: ٢٧

٦- (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) طه: ١٣٣

٧- (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) العنكبوت:٥٠

وفيها حكاية بعض أقاويل المشركين الباطلة، حيث اقترحوا عليه أن يأتيهم بآية مما طلبوا أو من غيره تدل على صدقه في دعوى النبوة؛ لعدم اعتدادهم بما أنزل من الآيات المتكاثرة عنادا[٤]،

بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ، نظم الدرر ٥٩١/٢، روح المعاني ٩١/٤.

(١) ينظر: نظم الدرر ٥٩١/٢.

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، ٩١/٤، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤١٥هـ.

(٣) ينظر: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندري (ت: ٦٨٣)، هامش الكشاف٦/٢، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

(٤) ينظر: إرشاد العق السليم ٥١/٦، أنوار التنزيل ١٦٠/٢، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين

آية تبهرهم ولا يحتاجون معها إلى كبير نظر، كناقة صالح، أو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية، وإحياء الموتى[١].

فاللبس الذي لديهم هو أنهم ظنوا أن الآية هي المحسة الكونية المشهودة، ولم يعلموا أن كل رسول من الرسل السابقين قد أرسل إلى أمته خاصة، وأن ما أوتوا من آيات إنما هي مناسبة لزمانهم، ومن جنس ما برع فيه أقوامهم.

ومن ثمَّ فمقترحاتهم هذه ليست للاسترشاد، بل تعلَّة لكفرهم والتمادي في الغي والضلال[٢]؛ إذ لم يكفهم ما شاهدوه وسمعوه من الآيات البينات التي هي أعظم مما طلبوا.

وفي تنكيرهم (آية) غموض وخفاء وعموم يشهد بتهربهم من الدخول في الإيمان، وهو فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة، حتى إذا أتاهم النبي بآية كما حدث، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء، وتسبيح الحصى، وغيرها، لم يعتدوا بها، وتمادوا في طلب ديل صدق النبوة.

وفي إفرادها ما يشهد بعنادهم وتوركهم وتعنتهم، ويكشف عن مكنون صدورهم وما يدور في نفوسهم من الاستهزاء والتعريض والتهكم لاستحالة أن يقدر على الإتيان بما طلبوا، وكأنهم يقولون مغالطة ومكابرة: نريد آية واحدة ثابتة بالتدرج لا تنقطع[٣] تشهد برسالتك، حتى إنهم أقسموا أن يؤمنوا إن جاءتهم آية (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا) الأنعام:١٠٩.

ويلحظ أن ستة من هذه المواضع افتتحت بـ (لولا) التحضيضية؛ لكونها أدل على الرغبة في الطلب، والحرص عليه، ولم يند عن ذلك سوى الموضع الثاني (الأنعام ١٠٩) الذي عوَّض عن ذلك القسم جهد أيمانهم.

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم على نوعين:

أولاً: رد مباشر في صلب آية المقترح أو عقبها مباشرة، وهذا ما سأبدأ به.

ثانياً: ردودٌ متفرقة غير التي في آية المقترح، إنما هي منثورة في ثنايا القرآن الكريم، ترد على كل المواضع، وهذا ما سوف أذكره – بإذن الله تعالى – عقب الرد المباشر في كل موضع.

أولاً: الرد المباشر:

جاءت محاجتهم في الموضع الأول (الأنعام:٣٧) معتمدة على التعبير الإنجازي الموجه (قل) الذي يربط الحجة بكل السياق، حيث أمر الله تعالى رسوله أن يجيبهم بما يُعلم منه أنه لو شاء لأنزل آية وفق مقترحهم تقوم

الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري٧٢/٣، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ، عادل أحمد عبد الموجود٤٥٩/٢، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤١٨هـ.

(١) ينظر: مدارك التنزيل ١٤٣/٢، المحرر الوجيز ٢٩٧/٣.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير ٣٩٠٢/٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٦٣١/٢.

عليهم بها الحجة في تصديقه (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً) تلجئهم وتضطرهم إلى الإيمان كما قال: (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) الشعراء:٤[١]، وهم لا ينكرون قدرة الله، بل الذي ينكرونه ويصرون عليه هو نبوة محمد – عليه السلام –.

والاقتصار في الجواب على بيان قدرته تعالى على التنزيل، مع أنها ليست في حيز الإنكار، للإيذان بأن عدم تنزيله تعالى للآية مع قدرته عليها لحكمة بالغة هم عنها غافلون، كما ينبئ عن ذلك الاستدراك (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وهذا الرد مستعمل في معناه الكنائي (انتفاء أن يريد الله تعالى إجابة مقترحهم؛ لأنه تعالى لما أرسل رسوله بالآيات البينات حصل المقصود من إقامة الحجة عليهم، ومن ثم يأتي الاستدراك(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) دالا على المعنى الالتزامي المتمثل في عنادهم وظلمة عقولهم، أي: ليس فيهم قابلية العلم والتفكر، ولا فائدة لهم في إنزال ما طلبوا[٢]؛ لأنهم يعلمون أن عدم إجابة مقترحاتهم لا يدل على عدم صدق الرسول[٣]، ولا يدرون أن في تنزيلها – إن حدث – قلعا لأساس التكليف المبني على قاعدة الاختيار، وأن في ذلك استئصالهم بالكلية، لكنهم يقترحونها جهلا، ويتخذون عدم تنزيلها ذريعة للتكذيب[٤].

أما الموضعين (الثاني الأنعام:١٠٩، والسادس العنكبوت: ٥٠) فقد جاء الرد فيهما بأمره عليه السلام أن يفوض الأمر لله – عز وجل – (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ) ردا على تعنتهم، أي: عند الله الحائز لجميع صفات الكمال، وليس إلي ولا إلى غيري شيء منها، ثم التفت إلى خطابهم منكرا عليهم تعنتهم، مشيرا إلى أنهم حقيقون بالمواجهة والتبكيت (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) بما أقسمتم من الإيمان عند مجيئها حتى تتوهموه أدنى توهم، فضلا عن الظن، فكيف بالجزم؟؟!!!، ثم التفت عن خطابهم إلى الغيبة في (لَا يُؤْمِنُونَ) إعلاما بأنهم بعيدون من الإيمان، وأنهم أهل للإعراض عنهم[٥].

ثم أردفه بما يؤكد عدم هدايتهم، ويدحض تألِّيهم على الله لما أقسموا إن جاءتهم آية على أن يؤمنوا في قوله: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ) حتى لا يهتدوا، (وَأَبْصَارَهُمْ) حتى لا ينفعهم الإبصار (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) عند إتيان الآيات التي قبل تلك (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) في تجاوزهم الحد يديمون التحير.

ثم فصَّل ما أجمله من عدم إيمانهم بما يبين عنادهم، ويكشف تعنتهم وإصرارهم على الكفر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ فرأوهم عيانا، ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ ومواجهة ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ على أي حال من الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ مطبوعون على

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٦٣١/٢.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٦٣١/٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٨٣/٦.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٣٠/٣.

(٥) ينظر: نظم الدرر ٦٩٥/٢.

الجهل[١].

ثم عقب ذلك بتسليته عليه السلام بحال الرسل قبله (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ)، وأمره بإهمالهم والإعراض عن افتراءاتهم ليقترفوا ما هم مقترفون (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ) ١١٣،112.

وقريب من هذا الموضع ما ورد في العنكبوت، غير أنه جاء في العنكبوت (وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) في مكان (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) – بعد (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ) في الموضعين – التي تنفي اختصاص النبي – صلى الله عليه وسلم – بخلق الآيات أو اقتراحها عند ربه، وتقصره على النذارة، وفيه تعريض بأن حال المشركين تقتضي النذارة، وأن التبليغ لا يحتاج بالضرورة إلى الإتيان بخوارق حسب رغبة الناس حتى يكونوا معذورين في عدم تصديق الرسول إن لم يأتهم بمقترحاتهم[٢]، وزاد بعدها في العنكبوت: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) العنكبوت:٥١، وهذا ما يتلاقى مع مقصد سورة العنكبوت وطابعها القوي في النذارة؛ حيث افتتحت بعد الحروف المقطعة بقوله منذرا ومهددا ومتوعدا: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) العنكبوت:٢، وقوله: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) ٤، وقوله: (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) ١٨، وقوله: (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ٢١، ٢٢، كما أنه يتلاقى مع ما سيق فيها من قصص المنذرين الغابرين (قوم لوط وإبراهيم وشيعب وهود وموسى) كما في الآيات (٢٦ – ٤٠).

وقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) عطف على (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ) وهو ارتقاء في المجادلة، والاستفهام إنكاري تعجبي، أي: أولم تكفهم الآية المغنية عن جميع الآيات، ذلك الكتاب الناطق بالحق، المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة[٣]، مع انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان، بحيث لا يختص بإدراك إعجازه فريق دون فريق، ولا يساويه غيره من الآيات المدركة بالحواس، فهو العقلي المدرَكُ بالفكر، وذلك أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية، المشتمل على الإعجاز ودليل صدق النبوة والتشريع معا، الماثل أمام الجميع بما يستحيل معه الطعن عليه بأنه شيء وقتي فردي، أو أنه تخيلات[٤].

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٦٩٦/٢.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٥٦٧/٥، ٥٦٨، روح المعاني ٧/١١، التحرير والتنوير ١٨٧،١٨٨/٢٠.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم ٤٣/٧، نظم الدرر ١٨٨/٢٠ وما بعدها.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٨٣/٦.

وهذه الزيادة هنا تتلاقى مع ما ورد في السياق القبلي من حديث عن رد بعض طعونهم المتعلقة بالقرآن، المتمثلة في إنكارهم أن يكون من عند الله عن طريق إثبات أنه الأمي الذي ما قرأ ولا كتب بيمينه قبل كتابا (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ) العنكبوت٤٨، ٤٩.

أما رد الموضعين الثالث(يونس: ٢٠، والخامس: الرعد٢٧)

فقد جاء معدولا عما يقتضيه الاقتراح إلى ما هو أولى منه؛ اقتضاء لحاجة السياق وتلاؤما معه، وهذا ما يطلق عليه البلاغيون اسم الأسلوب الحكيم، فقد طلبوا في كلا الموضعين آية واحدة خارقة مع ما بين أيديهم من البينات التي أعظمها القرآن الكريم، لكن الجواب جاء مخالفا لما اقترحوه، فجاء في يونس (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) ٢٠ **معتمدا على العامل الحجاجي (إنما) الذي يفيد (زيادة على قيمة تأكيد الإثبات) التخصيص، وهذا ما يستثمره المرسل عادة لإقناع المرسَل إليه**[١]**، من خلال قصر علم الغيب على الله؛ تنبيها على أنه الأولى والأهم في الرد عليهم، وأنهم ما اقترحوه ليهتدوا ويسترشدوا**، وإلا كفاهم عما طلبوا ما أنزل إليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء قبله مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية خالدة، بديعة المذهب، دقيقة المسلك بين المعجزات، لكنهم لم يعتدوا بكل ذلك لفرط عنادهم وشدة إصرارهم على الكفر، وتماديهم في الضلال والغي، ومن ثم فلا جدوى من تنفيذ مقترحهم، ولهذا وكلهم إلى الملك المختص بعلم الغيب؛ تنبيها على أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر غيب لا يعلمه إلا الله، وأنه ليس أمامي وإياكم سوى الانتظار لما يفعل بكم لعنادكم واجترائكم وجحودكم الآيات البينات[٢]، فضلا عما فيه من التعريض بتهديدهم على تعنتهم وعنادهم[٣].

كذلك الأمر في رد آية الرعد فقد جاء الرد فيها معدولا عنه أيضا؛ ببيان أن الهداية والضلال بمشيئته سبحانه (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) الرعد: ٢٧، ولولا أنهم جُبلوا على اتباع الضلال لكانوا مهتدين؛ لأن أسباب الهداية واضحة.

وفي ذلك تعجيب من شدة ضلالهم، يشي بتكبرهم وإصرارهم على الكفر وإعراضهم عن الآيات والأدلة القاطعة؛ تعنتا وجحودا[٤]، فضلا عما في هذا الجواب من حث الكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد[٥]، والتعريض بأن حال من ظل على عناده وجحوده مثار تعجب، وأنهم ممن شاء الله أن

---

(١) ينظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر الغزاوي، ص ٥٦، الطبعة الأولى، دار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: الكشاف ٥/٣، إرشاد العقل السليم ١٣٣/٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٥١/١١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٥١/١١.

(٥) ينظر: روح المعاني ١٤٨/١٣.

يكونوا من الضالين[١].

قال الزمخشري: "فإن قلت كيف طابق بين قولهم: (لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ) قوله: (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) قلت: هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات البارة المتكاثرة التي أوتيها الرسول لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده وراء كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها، وجعلوه كأن لم تنزل عليه قط آية كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم!!، وما أشد تصميمكم على كفركم!! (إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ) ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن نزلت كل آية، إنما يهدي إليه من أقبل إلى الحق وكان على خلاف صفتكم[٢].

واختصاص آية يونس في الجواب بقصر علم الغيب على الله يتلاقى مع ما عُنيت به السورة من الحديث عن الغيب الذي ينذر ويبشر به الناس في: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ) يونس:٢، ثم الحديث عن مآلاتهم وما ينالهم فيها (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) يونس:٤، كما أنه يتلاقى مع تخبطهم في الحديث عن الغيب وادعائهم أن لهم شفعاء عند الله (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) يونس ١٨.

أما سورة الرعد فقد عُنيت في المقام الأول بأمر الهداية من مفتتحها، وذلك بحشد دلائل قدرته، وتعديد مظاهر إنعامه (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) الرعد:٢، و (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد:٣، و (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الرعد:٤.

كما أنها عاورت بين معاني الترغيب والتهديد (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) الرعد: ٨، ٩، و (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) ١٢، مع الحجاج العقلي الهادي(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٨١/١٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٤٩٧/٢.

وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...) ١٦، ١٧، فكان الأنسب بها الهداية والإضلال.

أما آية الرعد:٧ **فقد جاء الرد فيها معتمدا أيضا على العامل الحجاجي (إنما)** (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) بقصر حال النبي – صلى الله عليه وسلم – على النذارة لهدايتهم الذي يدل عليه التذييل(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) ببيان أن لكل قوم نبي يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسيلة التي يراها مناسبة لأحوالهم حسب ما يظهره الله على أيديهم[١]، وهنا تكمن القيمة الحجاجية لأسلوب القصر بـ (إنما) التي تجعل التركيب موغلا في الحجاج؛ حيث يتعدى الأمر مجرد النظر إلى الصيغة (القصر بإنما) بل يتعداه إلى القيمة الواقعية له، فهو صلى الله عليه وسلم ليس إلا منذر، لا يأتي بالمقترحات.

ولما كانوا أهل فصاحة ولسان جعلت معجزتهم القرآن، ولا حاجة لإجابة مقترحاتهم؛ لأنه ليس عليك إلا الإتيان بما يُعلم به نبوتك وقد حصل[٢].

أما آية طه ١٣٣ (أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) **فقد جاء الرد فيها معتمدا على الحجاج بالاستفهام الذي يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمة الاستفهام الحجاجية[٣] بما يحمله من افتراضات ضمنية تجعله يحمل طاقة حجاجية؛ إذ الغاية من الاستفهام تتمثل في فرض إجابة محددة على المتلقي يمليها عليه المقتضى الناشئ عنه الاستفهام، فيتم توجيه دفة الحوار معه إلى الوجهة التي يريد المتكلم، وعليه يأتي الاستفهام لإجبار المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه البعد الاستفهامي الاقتضائي الذي لا يحتاج إلى الإجابة لبداهتها، فالسؤال فيه ما هو إلا ضرب من الإثبات المباشر لعلم السائل بالمطلوب، ووظيفته لا تتعدى التذكير بالجواب[٤]، فقد ثبت بالدليل القاطع مجيء الآية (بينة ما في الصحف الأولى) بواسطة هذا الاستفهام الحجاجي الذي تكمن طاقته الحجاجية في أنه يحمل معنى تقرير وإثبات وصول معجزة القرآن إليهم**، التي هي أمُّ الآيات وأسُّ المعجزات، وأنفعها وأرفعها؛ إذ هو بينة ما في الصحف الأولى، وشاهد حقيقة ما فيها من العقائد وأصول الأحكام التي أجمع عليها كافة الرسل، وبصحة ما تنطق به من أنباء الأمم[٥]، من حيث إنه غني بإعجازه عما يشهد بحقيَّته، حقيق بإثبات حقيَّة غيره، وفي هذا ما لا يخفى من تنويه شأنه، وإنارة برهانه، والتنبيه على أصالته في إثبات النبوة، وتقرير أنه من الوضوح بحيث لا يتأتى فهم إنكاره أصلا وإن

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٤٩/١٢.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم٧/٥، نظم الدرر ١٢٨/٤.

(٣) ينظر: الخطاب والحجاج، ص ٥٧.

(٤) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة "دراسة تداولية"، ابتسام بن خراف، ص ٣٠٨، دكتوراه مخطوط بجامعة باتنة، الجزائر ٢٠٠٩/٢٠١٠م.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم٥١/٦، التحرير والتنوير ٢٠٩/١٦، ٢١٠، روح المعاني ٢٨٥/١٦.

اجترأوا على سائر الآيات مكابرة وعنادا[١]

ثانيا: الردود العامة المتفرقة في ثنايا القرآن، الصالحة لرد مقترحهم الإتيان بآية في كل موضع، وقد جاء ذلك في ستة مواضع، ثم جاء في موضع واحد سبب عدم الاستجابة لمقترحاتهم، وهي كما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿□ جَ﴾ البقرة: ١٤٥

فهي واردة في سياق الحديث عن عناد أهل الكتاب وإصرارهم على الكفر، والتعريض بمكابرتهم، والمراد بأهل الكتاب: أحبارهم، فإن ما يفعله أحبارهم يكون قدوة لعامتهم، وإذا لم يتبع أحبارهم قبلة الإسلام فأجدر بعامتهم أن لا يتبعوها، ليس عن شبهة حتى تزيله الحجة، ولكنه مكابرة وعناد، فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم، تأييسا من إيمانهم، وحثاً على الثبات على مباعدتهم، والحذر من مخادعتهم، والمراد (بِكُلِّ آيَةٍ): الآيات المتكاثرة والحجج الباهرة، والبراهين الساطعة[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿□ □ □ □□ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ □ □ جح خج لم له مج مح مخ مم نج نح نخ﴾ الأنعام: ٢٥.

واردة في سياق الحديث عن المشركين الذين كفروا وبربهم يعدلون، والذين يخيلون للدهماء أنهم قادرون على مجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلى إبطال حججه، وينهون الناس عن الإيمان، (وإن يروا كل آية) لا يؤمنوا بها؛ لما عندهم من العناد وتقليد الآباء والأجداد، و(كل) مستعملة في الكثرة مجازا، دلالة على أنهم ما جاءوا طالبين الحق كما يدعون، ولكنهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به، وعدلوا عن الجدل إلى المباهتة والمكابرة[٣].

٣- وقوله تعالى: ﴿□ □ □ □ بر □ □ بن بى بي تر □ □ تن تى تي □﴾ الأعراف: ١٤٦

وفيها تصريح بسبب كفرهم (بر □ □ بن بى)، ومن ثم نعتهم بما يتلاقى مع تكبرهم ظلما وزورا (بغير الحق) فوسمهم بشر الصفات من العناد والجحود المفاد من (بي تر □ □ تن تى تي)، ثم زاده تأكيدا بوصفهم بمخالفة سبيل الرشد في: (□ □ □ □ □ □ □)، أي: إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به، وإن يدركوا الفساد عملوا به بقصد منهم ونظر وتعمد؛ لغلبة الهوى على قلوبهم، ولم يكتف بذلك، بل صرَّح بضلالهم وغيِّهم في: (□ □ □ □ □)، أي: لا يلازمون طريق الرشد، ويلازمون طريق الغي بغاية الشهوة والتعمد والاعتمال لسلوكه، ثم بيَّن أن سبب ذلك وعلته إنما هو تكذيبهم وغفلتهم في (□ □ □ □

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم٥/٥١.

(٢) ينظر: نظم الدرر ١/٢٦٨، التحرير والتنوير ٢/٣٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٢/٦٢٢، التحرير والتنوير ٦/٥٦، ٥٨.

□ □ □)[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﴾ يونس: ٩٦ – ٩٧

وهي واردة في سياق التعريض بالمشركين الشاكين في صدقه صلى الله عليه وسلم، والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب، وبيان أنهم من زمرة الفرق التي حق عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا، فهم لا تجدي فيهم الحجة؛ لأنهم أهل مكابرة، وليسوا طالبين للحق؛ لأن الفطرة التي فطرت عليها عقولهم غير قابلة لحقائق الإيمان، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون، تلك أماراتهم، وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم، ولو جاءتهم آيات كثيرة تشبه في الكثرة استغراق جميع الآيات الممكن وقوعها[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ يونس: ١٠١

في سياق الحديث عن لفت الأنظار إلى آيات الكون، لما فيها من الآيات التي هي في غايه الدلالة، أي: فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال، ثم بين بقوله : ﴿□ □ □ □ □ □ □ □ □ □﴾ على أن التوقف عن الإيمان بعد التنبيه على كيفية الاستدلال معاندة، وأن انتفاء الإيمان عنهم وصف عرفوا به، وأنه مستقر في نفوسهم[3].

٦- قوله تعالى: ﴿ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ □ ﱚ □ □ ﱜ □□ □ ﱞ □ ﴾ القمر: ٢ – ٣

واردة في سياق تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبينة، وذكر أحوال تكذيبهم، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم، إعلاما بحالهم في المستقبل قطعاً لمن يطلب من المؤمنين إجابة مقترحاتهم رجاء إيمانهم؛ لأن طعنهم في الآيات مشهور يومئذ معروف أصحابه، فهم مستمرون عليه كلما رأوا آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم يعرضوا عن الانتفاع، ويقولوا على سبيل التجديد منهم والاستمرار (ﱚ □) خيال لا حقيقة له، فطبيعتهم التكذيب واتباع الهوى، وعطف قوله: (ﱜ □□) على (□) من عطف العلة على المعلول؛ لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه، من حب الرئاسة، وحسد المؤمنين على ما آتاهم الله، وحب اتباع ملة آبائهم، ومحبة أصنامهم، وإلفٍ لعوائدهم،

---

[1] ينظر: نظم الدرر ١١/٣، ١١٢، إرشاد العقل السليم ٢٧٢/٣، روح المعاني ٩٥/٥، التحرير والتنوير ١٨٥/١١، ١٨٦.

[2] ينظر: التحرير والتنوير ١٧٨/١١، ١٧٩.

[3] ينظر: نظم الدرر ٤٩١/٣، ٤٩٢، التحرير والتنوير ١٧٨/١١، ١٧٩.

وحفاظ على أنفتهم[١].

وفي موضع واحد بين سبب عدم إجابة مقترحاتهم، وذلك قوله: ُ لخ لم لى لي □ □ □ □ □□ □ □ نم نى □ □□ □ □ □ □ ً الإسراء:٥٩

والآية كشف لشبهةٍ من شبه تكذيبهم؛ إذ كانوا يسألون النبي أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم، ويقولون: لو كان صادقا وهو يطلب منا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه؛ غرورا بأنفسهم أن الله يتنازل لمباراتهم[٢].

ولما تكرر من كفار قريش اقتراحهم الآيات= بعد أن اشتد أذاهم، وكان – صلى الله عليه وسلم – لشدة حرصه على إيمان كل أحد فكيف بقومه العرب فكيف ببني عمه منهم – ربما أحب أن الله تعالى يجيبهم إلى مقترحهم؛ طمعاً في إيمانهم، وإراحة له ولأتباعه من أذاهم= كان المقام في قوة اقتضائه أن يقال بعد ذكر آية العذاب: ما لهم لا يعجل عذابهم أو يجابون إلى مقترحاتهم ليقضى الأمر؟؟ فيقال في الجواب: ما منعنا من تعجيل عذابهم إلا أنا ضربنا شيئا، ولا يمنعها مانع، فكم أجبنا أمة إلى مقترحها فما زاد ذلك أهل الضلالة منهم إلا كفراً، فأخذناهم؛ لأن سنتنا جرت أنا لا نمهل بعد الإجابة إلى المقترحات[٣].

والمعنى: إنما أمهلنا المتمردين على الكفر إلى أجل نزول العذاب، ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات؛ لعدم جدوى إرسال الآيات للأولين من قبلهم في الكفر على حسب اقتراحهم؛ إذ كذبوا بالآيات.

ويجوز أن يكون الإرسال مستعارا لإظهار الآيات وإيجادها، وتعريف الآيات للعهد، أي: المعهودة من اقتراحاتهم، وإسناد المنع إلى تكذيب الأولين بالآيات مجاز عقلي؛ لأن التكذيب سبب المنع.

والمعنى: أننا نعلم أنهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لما جاءتهم أمثال تلك الآيات، وأن الإصرار على الكفر سجية للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات، فلو آمن الأولون عندما أظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفا على إيجاد الآيات التي سألوها.

فضلا عما فيه من تثبيت أفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان قومه، لحزنه من أن يظنوه كاذبا.

وفيه أيضا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أن الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير، ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.

وتلك مكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا مع أن جبلتهم العناد لأصروا على الكفر فحقت عليهم سنة الله التي قد خلت في عباده وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات؛ لأن إظهار الآيات تخويف من العذاب، والله أراد الإبقاء على هذه الأمة، وعوضنا تخويفهم بدلا عن إرسال الآيات التي

---

(١) ينظر: نظم الدرر ٣٤٥/٧، التحرير والتنوير ١٦٧/٢٧، ١٦٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١١٤/١٤.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٣٩٩/٤.

اقترحوها[1].

المطلب السابع: اقتراح إنزال حجارة عليهم من السماء أو عذاب أليم

وقد جاء في موضع واحد، هو قوله تعالى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الأنفال:32 .

والآية واردة في سياق ممتد من ضلالاتهم وفظائعهم وعتوهم وقبائحهم، بدءاً من قوله: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) ٢٢، ٢٣، ثم الإخبار عن مكرهم وسوء نيتهم:(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ٣٠، ثم جحودهم واستهزاءهم وتكبرهم على القرآن والإيمان في: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) ٣١، ثم تأتي الطامة بطلب نزول العذاب بساحتهم؛ حيث قالوا: اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه محمد هو الحق منزلا من عندك ليدين به الناس فأنزل علينا الحجارة أو العذاب الأليم، قالوه على سبيل المكابرة والتهكم والتخييل إلى الناس أنهم على يقين وجزم تام أنه باطل[2]؛ إيماء إلى أنهم لن يتبعوه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله، وأنهم يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء كما أمطرتها على قوم لوط، أو يستأصلون بعذاب أليم على اتباع محمد –صلى الله عليه وسلم –، وذلك أبلغ في جحود حقيته وعدِّه محالا، ولذلك علقوا عليه طلب العذاب الذي لا يطلبه عاقل، ولو كان اتباعه ممكنا لفروا من تعليقه على ذلك[3].

وكلامهم هذا جارٍ مجرى القسم، فقد كان من عاداتهم أنهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذا كان ما حصل في الوجود على خلاف ما يحكونه أو يعتقدونه، ويحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة، وهي طريقة مشهورة في كلامهم، قال النابغة:

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه فلا رفعت سوطي إليَّ يدي[4]

وهذا كناية منهم على كون القرآن ليس كما

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١١٤/١٤، ١١٥.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٩/٤، نظم الدرر: ٢١١/٣، روح المعاني ١٨٧/٥.

(٣) ينظر: روح المعاني ١٨٧/٥.

(٤) البيت في ديوانه ص:٢٥، غير أن رواية الديوان:

ما قلت من شيء مما أتيت به

إذا فلا رفعت سوطي إلي يدي

وهو البيت رقم (٣٩) من قصيدة يمدح فيها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما بلغه عنه فيما وَشَى به بنو قريع في أمر المتجردة، ومطلعها:

يا دار مية بالعلياء فالسند

أقوت، وطال عليها سالف الأبد

ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، من دون.

يوصف به؛ للتلازم بين الدعاء على أنفسهم وبين الجزم بانتفاء ما جعلوه سببا الدعاء بحسب عرف كلامهم واعتقادهم[١].

ووصفهم العذاب بـ (أليم) زيادة في تحقيق يقينهم بأن المحلوف عليه بهذا الدعاء ليس منزلا من عند الله، ولذلك عرَّضوا أنفسهم لخطر عظيم إن كان القرآن حقا وكان منزلا من عند الله[٢].

من كل ما سبق يتضح أن جهلهم وعتوهم وعنادهم وبغضهم الحق جعلهم يبالغون في الجحود والإنكار والجرأة على الله، حتى إنهم لم يبالوا بهلاك أنفسهم عند نزول الحجارة عليهم[٣].

ثم أتبعوا كل هذه الصفات القبيحة بحسدهم النبي – صلى الله عليه وسلم – واستبعادهم أن يكرمه الله تعالى بهذه الكرامة[٤]، وذلك منهم الجهل والسفه بعينه، وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة؟!! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله حين دعاهم إلى الحق: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له[٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٨٥/٩، ٨٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٨٦/٩.

(٣) ينظر: تأويلات أهل السنة ١٩٠/٥، البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ٤٨٢/٤، الطبعة : الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان– بيروت ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، تفسير القرآن العظيم ٤٧/٤.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٠.

(٥) ينظر: العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) ١١٢/٤، الطبعة: الأولى ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، المستطرف من كل فن مستظرف شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت:٨٥٢هـ) ٦٩، الطبعة: الأولى، عالم الكتب – بيروت١٤١٩هـ، وقائل هذه العبارة النضر بن الحارث. ينظر: جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي١/١٤٠، الطبعة: الأولى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، نظم الدرر ٢١٢/٣، وقيل: إن قائلها أبو جهل. ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ٢٢٤ – ٣١٠هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ٥٠٥/١٣، الطبعة: الأولى ١٤٢هـ ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة، بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي تحقيق: د. محمود مطرجي ١٩/٢، دار الفكر – بيروت، الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي٣٥١/٤، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان – ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ٥٧/٣، ٥٨، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ، دار إحياء التراث العربي– بيروت، تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين٤٤٨/١، دار الكتب العلمية – بيروت، وأخرج البجاري بسنده عن أنس قال:

الرد عليهم:

جاء الرد على كلمتهم الشنعاء تلك بقوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ٣٣ كناية عن استحقاقهم العذاب[١]، تحمل في طياتها – من خلال الاعتماد في حجاجهم على أفعال الكلام الإخبارية (ما كان الله ليعذبهم...) – الإخبار بإمهالهم، مع بيان موجب الإهمال والتوقف في إجابة دعائهم الذي قصدوا به ما قصدوا، وهو أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي – صلى الله عليه وسلم – بين أظهرهم غير مستقيم في حكمه وقضائه سبحانه[٢]؛ إجلالا لمقامه صلى الله عليه وسلم[٣]، وإعلاما بكرامته عند ربه؛ لأنه تعالى جعل وجوده في مكان سببا في تأخير العذاب عن أهله، ومانعا من نزوله مع استحقاقهم إياه[٤].

فالمتمعن في الرد يجده جاء بهذه الجملة الخبرية التي تؤكد الإقرار بقدرة الله على استئصالهم بالعذاب الأليم الذي طلبوا، وإنزال الحجارة عليهم لولا وجوده عليه السلام، لتكون بمثابة الكلام حين يكون المخاطب جاهلا لمضمونه، فيراد إعلامه بما لم يكن يعلمه مما ينبغي له عدم إنكاره، وهذا ما ينسجم مع منطق التلقي؛ حيث تقتضي إقامة الحجة على المنكر أن يعرف أولا، وهنا يتحقق قانون الإفادة من فعل الكلام[٥]، فحجاجية أفعال الإخبار هنا تكمن في تأكيد قدرة الله تعالى على إهلاكهم، ونفي ما زعموه من الطعن في صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، ومن ثَمَّ ففي الإخبار قيم حجاجية تؤكد قضايا ثلاثة، هي:

صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

نفي العذاب مع استحقاقهم إياه

قدرة الله تعالى على استئصالهم بالعذاب الذي طلبوا وإنزال الحجارة عليهم.

وقوله: (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) يقصد استغفار المؤمنين المستضعفين، وفيه دلالة على أن استغفار بعض الناس يدفعُ العذاب عن عامتهم[٦].

"قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ... " الأنفال:٣٣، ٣٤. صحيح البخاري، كتاب تفسير سورة الأنفال، باب قوله: " وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك" رقم (٤٦٤٨)، ٢٩٤/١١، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم" رقم (٢٧٩٦)، ١٢٩/٨، ونسبها القرآن إليهم؛ لأن كليهما كان مسموع الكلمة موسوما بالنبل والفهم، مسكونا إلى قوله.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٨٧/٩.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٩/٤، روح المعاني ١٨٧/٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٢١٢/٣.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ٨٧/٩.

(٥) ينظر: تجليات الحجاج في القرآن سورة يوسف أنموذجا، ماجستير إعداد حياة دحمان، إشراف أ.د/ عز الدين صحراوي، ص ٣٢٠، مخطوط بجامعة الحاج لخضر – باتنة، الجزائر ٢٠١٣/٢٠١٤م.

(٦) ينظر: روح المعاني ١٨٧/٥.

وقيل: إن المراد به استغفار من في أصلابهم ممن علم الله تعالى أنه يؤمن.

ثم ارتقى في بيان أنهم أحقاء بالتعذيب والاستئصال بيانا بالصراحة بعد التكنية عنه في قوله: (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ٣٤، وما استفهامية، والاستفهام إنكاري، واللام في (لهم) للاستحقاق، والمعنى: ما الذي ثبت لهم حتى ينتفي عنهم عذاب الله؟؟ وأي شيء كان لهم في عدم تكذيبهم؟؟ أي: لا شيء يمنعهم، بل هم حقيقون به[١].

المطلب الثامن: اقتراح أن يُؤْتَى مثل ما أُوتِيَ رسلُ الله

وقد جاء في موضع واحد، هو: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) الأنعام:١٢٤

وهي واردة في سياق الحديث عن أكابر مجرمي مكة ومكرهم وعنادهم، فقبلها قوله: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) ١٢٣، فيها يخبر سبحانه أن أكابر مجرمي مكة إذا جاءتهم حجة من الله على صدق ما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – من عند الله جادلوه بزخرف القول، وعاندوا وجحدوا الآيات وقالوا –حسدا لمن خصه الله بالنبوة لكونهم الأكابر أهل العظمة والعلو المقتضي ألا يُخَص أحد عنهم بشيء[٢] –: لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله من المعجزات التي أظهروها لأقوامهم، كعصا موسى واليد وشق البحر، وإحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، أو حتى يوحى إلينا لئلا يكونوا أعظم منا[٣]، أو يكون نزول الآية إلينا لا إليه؛ لأنا المستحقون دونه[٤]، وقد روي أن الوليد بن المغيرة قال للنبي: لو كانت النبوة لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سنا، وأكثر منك مالا وولدا.

كما روي أن أبا جهل قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، وكما أخبر عنهم القرآن في قوله: (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) المدثر:٥٢[٥]، ومقصودهم أنهم غير مقتنعين بمعجزة القرآن[٦].

القرآن[٦].

لكن الحكمة تقتضي ألا يكون الرسل قبل البعثة مُطَاعين في أقوامهم؛ حتى لا يُقال: إنهم كانوا قبل البعثة مطاعين فاتبعهم قومهم لذلك، ولهذا جعلها الله في يتيم أبي طالب دون أبي جهل

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٨٧/٩.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٧٠٩/٢.

(٣) ينظر: نظم الدرر ١٢٨/٢٧٠٩.

(٤) ينظر: روح المعاني ٢٦٥/٤.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٥١/٨.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٨٢/٣، ١٨٣، روح المعاني ٢٦٤/٤، ٢٦٥، التحرير والتنوير ٥٢/٨.

والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها[١].

وسبب اقتراحهم هذا علمهم ويقينهم أنه رسول الله، وأن ما نزل عليه آية، وأن الرسالة لا تجعل إلا في المعظَّم المفضل، لكنهم ظنوا أنها تجعل في العظماء عند الخلق، ولهذا قالوا: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الزخرف:٣١

ومن هنا يتبين تناقض أقاويلهم وحجاجهم، حيث أقروا بالرسل وتفضيلهم على غيرهم من البشر، وبالآيات، ورغم ذلك ينكرون ويصرون على الكفر[٢].

الرد عليهم:

جاء رد مقترحهم الفاسد بقوله: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) **معتمدا على أفعال الحجاج الإخبارية لدحض حجتهم من ناحيتين:**

الأولى: **إيضاح المعنى، وتوصيل المعرفة، والاستمالة من خلال الفهم والإفهام والبيان، وهو ما يسمى التأثير بالحجة؛ لجعل المخاطب يعرف أولاً حتى يتقاسم مع المنشئ اعتقاده وقناعاته**، من خلال بيان أن منصب الرسالة ليس مما يُنال بما يزعمونه من كثرة المال والولد، وتعاضد الأسباب والعدد، إنما بفضائل نفسانية، واستعداد ذاتي[٣]، وأن الله سبحانه أعلم بمن يصلح للرسالة من خلقه، وأعلم حيث يضعها، ومن ثم يصطفيه دون غيره[٤]، وفي ذلك تعريض بأنهم لا يصلحون للخير، وليس فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلا عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين، وتنبيه إلى انحطاط نفوس سادة المشركين عن نيل مرتبة النبوة، وانعدام استعدادهم، وبيان تعظيم مقدار النبي صلى الله عليه وسلم[٥].

الثانية: الحجاج التقويمي من خلال بيان أن الرسالة ليست مما ينال بالأماني والتشهي ولا بالسؤال؛ لأن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له، والقدرة على تحمله والقيام بمهامه وواجباته، وأنه لا يصلح للرسالة إلا نفس خلقت قريبة من النفوس الملكية، بعيدة عن رذائل الحيوانية، سليمة من الأدواء القلبية، والله

---

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٢٨٩/٢، التفسير البسيط ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ٤١٤/٨، ٤١٥، تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، وقامت بنشره عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ، المحرر الوجيز ٣٤٢/٢، زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي٧٥/٢،، الطبعة: الأولى١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي بيروت، لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين ١٥٤/٢، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت١٤١٥هـ ، البحر المحيط ٤/ ٦٣٧.

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة ٢٥٢/٤.

(٣) ينظر: روح المعاني ٢٦٦/٤.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٦٣٧/٤.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٢٩٨/٣، التحرير والتنوير ٥٤/٨.

سبحانه وحده هو الذي يعلم من يصلح لها ويختاره[١].

وقوله: (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) وعيد على مكرهم وقولهم: (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله)، وهو استئناف ناشئ عن قوله: (ليمكروا)، والصغار: الهوان والذل، وقد جمع الله عليهم الصغار والعذاب الشديد؛ ليتلاقى ذلك مع كبرهم وعتوهم وعصيانهم الله تعالى، ومخالفة رسوله.

والصغار والعذاب يحصلان لهم في الدنيا بالهزيمة وزوال السيادة وعذاب القتل والأسر والخوف، وفي الآخرة بإهانتهم بين أهل الحشر، وعذابهم في جهنم[٢].

وفي ذلك أيضا ما فيه من التعريض بهم والتنكية بمعاملتهم بنقيض مرادهم إذ طلبوا الرفعة والسيادة بالرسالة، فنالهم الصغار والهوان بالعذاب.

فالجملة استئناف آخر ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشر بعدما نعى عليهم حرمانهم مما أمَّلوه[٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٥٤/٨.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٧١٠/٢، التحرير والتنوير ٥٥/٨.

(٣) ينظر: روح المعاني ٢٦٦/٤.

المطلب التاسع: اقتراح أن يؤتى مثل ما أوتي موسى

وقد جاء ذلك في موضع واحد هو قوله: (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) القصص:٤٨، ٤٩

لما حكى عنهم أنهم عند الخوف طلبوا أن يأتيهم الله برسول يتبعونه في قوله تعالى: (وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ٤٧ بيَّن أنه لما جاءهم الحق الذي بهرهم لم يجدوا من المعاذير إلا ما لقنهم اليهود (لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ) من الكتاب المنزل جملة واحدة، وغيرها من الآيات والمقترحات المبنية على التعنت والعناد؛ حقدا ومكابرة، وجحودا وعنادا.

فهم قبل البعثة يتعلقون بشبهة، وبعدها يتعلقون بأخرى، فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد[١].

ودليل ذلك أنهم – مع مطلبهم أن يؤتى مثل ما أوتي موسى – لا يؤمنون بموسى – عليه السلام – ولا بما جاء به، بل يجحدون رسالة الرسل قاطبة[٢].

وهذا يدل على شدة معاداتهم للإسلام، وإصرارهم على الكفر الذي وصل بهم إلى درجة أنهم يقلدون اليهود تقليدا أعمى، ويطيعونهم في جميع ما يوعزون وإن نافى معتقداتهم؛ بغضا في اتباعه صلى الله عليه وسلم، ورغبة في تكذيبه.

وهذا ما فعله اليهود أنفسهم؛ إذ كانوا يعرفونه على وجه اليقين كما يعرفون أبناءهم أو أشد، وكانوا يستفتحون به على العرب قبل أن يُبعث، فلما بُعث من غيرهم كفروا به.

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم على ثلاثة أجزاء:

الأول قوله: (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) **الذي اعتمد فيه على فعل الكلام الإنشائي (الاستفهام) بما له من قيمة حجاجية تكمن في إجبار المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه البعد الاستفهامي الاقتضائي، وتوجيه دفة الحوار إلى الوجهة التي يريدها المتكلم؛ ليقوم مقام الإخبار بإثبات كفرهم بما طلبوا، فوظيفة الاستفهام هنا لا تتعدى التذكير بالجواب المعلوم بدهيا للمتكلم والمخاطب على حدٍّ سواء**[٣]، وفي ذلك إظهار لكون ما قالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم إلى الحق[٤]، فالاستفهام (فوق تقررهم بكفرهم بما أوتي موسي) يحمل معاني الإنكار والتعجيب من

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٧/٧، مفاتيح الغيب ٢٢٣/٢٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٣٨/٢٠.

(٣) ينظر: تجليات الحجاج في القرآن سورة يوسف أنموذجا، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٢٢/٢٤.

طلبهم شيئا كفروا به من قبل كما كفروا بهذا الحق، وقوله: (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق، وبيان لكيفيته[١]، وكأنه جواب لمن قال: ما كان كفرهم بهما؟ فقيل: (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) أي: تعاونا وتعاضدا، وهو زيفٌ أيضا؛ لأنه لو كان شرط إعجاز السحر التظاهر لكان سحر فرعون أعظم إعجازا؛ لأنه تظاهر عليه جميع السحرة في مصر، ومع ذلك عجزوا عن معارضة ما أظهر موسى – عليه السلام – من آية العصا.

أما محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد دعا أهل الأرض إلى معارضة كتابه، وأخبرهم – إلهابا وتهييجا – أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[٢].

ولما تضمن قولهم هذا الكفر المفهوم من تسميتهما (ساحران) صرحوا به، وقالوا جرأة على الله ورسله (إِنَّا بِكُلٍّ) من الكتابين أو الرسولين (كَافِرُونَ)[٣]، وفي هذا دلالة على أن قدمهم في الكفر من الرسوخ بمكان، وأن لهم في العناد عرقا أصيلا[٤].

أما <u>الثاني</u> فهو قوله: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، **الذي اعتمد الحجاج فيه على فعل الإنشاء الإنجازي (قل) الموجه إليهم لربط الرد بباقي الخطاب وبكل السياق بما فيه من تحدٍّ وتعجيز لهم، وتنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله؛ لأن ذلك أمر بيّن الاستحالة**، وتوسيع دائرة الكلام فيه للتبكيت والإفحام[٥]، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنهم يتبعون أهواءهم الزائفة من غير أن يكون لهم مستمسك أصلا، إذ لو كان لهم لأتوا به[٦]

واصطفاء (إن) في (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) مع امتناع صدقهم تهكم بهم، وتلميح إلى عجزهم وكذبهم[٧].

وقوله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) ٥٠ استفهام إنكاري بمعنى النفي يشي بزيادة التقرير والإشباع في التشنيع عليهم، أي: لا أضل[٨]، والتذييل بـ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)، تأكيد لعم هدايتهم، وأنهم كانوا أقوى الناس في اتباع أهوائهم[٩].

<u>الثالث</u>: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) ٥١، **الذي اعتمد الحجاج فيه على التأكيد (لقد) الذي هو من أهم أركان البناء اللغوي الحجاجي، وعلى السرد الحواري القائم على فعل الكلام الإخباري المفتتح بالجزء العاطفي المتمثل في استدعاء أحاسيس المخاطبين واستمالتهم من خلال توصيل القول لهم،**

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٧/٧.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٤٩٧/٥، ٤٩٨.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٧/٧، نظم الدرر ٤٩٧/٥.

(٤) ينظر: روح المعاني ١٠/ ٢٩٩.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٨/٧، مفاتيح الغيب ٢٢٣/٢٤.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٨/٧.

(٧) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٨/٧.

(٨) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٨/٧، روح المعاني ٣٠٠/١٠، التحرير والتنوير ١٤٠/٢٠.

(٩) ينظر: نظم الدرر/ ٤٩٩/٥.

وترجي هدايتهم وتذكرهم (لعلهم يتذكرون).

فقوله: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) رد على طلبهم إنزاله دفعة واحدة كما أنزلت التوراة، أي: أتبعنا بعض القول بعضا بالإنزال، منجما قطعا بعضها في إثر بعض؛ لتكون جوابا لأقوالهم، وحلا لإشكالهم، فيكون أقرب إلى الفهم، وأولى بالتدبر مع تنويعه وتصريفه في ألوان القول[1].

و(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) تبكيت لهم بأن هذا التوصيل نقيض التذكير؛ ليكون حالهم حال الذي يُرجى لهم أن يرجعوا إلى عقولهم فيجدوا فيما طبع فيها ما يذكرهم بالحق تذكيرا[2].

المطلب العاشر: اقتراح نزول القرآن على غيره

وذلك في قوله: (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الزخرف: ٣١ الآية في سياق الحديث عن الأصل الثاني من أصول كفرهم، فبعد إنكارهم الوحدانية راحوا ينكرون بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) ٣٠، إذ لم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة، وإنما مرادهم استقصاء الاستبعاد كما اقتضاه قوله: ﴿ ﴾ ص: ٤[3].

فقد أنكرت قريش أن يُخَص محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء؛ ظنا منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، فمقياس العظمة عند الجاهلين في كل زمان ومكان الجاه وكثرة المال، وفاتهم أن يعلموا أن العظيم عند الله وعند العقلاء إنما هو عظيم النفس سامق الروح.

وتقرير هذه الشبهة أنهم ذكروا أن منصب النبوة منصب شريف لا يليق إلا برجل شريف، وأنها أعلى المراتب، فوجب أن ألا تحصل إلا لأشرف الناس – وصدقوا إلى هذا الحد – لكنهم ضموا إلى ذلك مقدمتين فاسدتين:

الأولى: أن محمدا ليس أشرف الناس، فوجب

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٢٤/٢٤، نظم الدرر/ ٤٩٩/٥، التحرير والتنوير ١٤٢/٢٠.

(٢) ينظر: نظم الدرر/ ٤٩٩/٥، روح المعاني ٣٠٠/١٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١١٧/٢٣.

ألا تحصل له النبوة.

الثانية: أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان، وأن الشريف إنما هو ذو الجاه كثير المال، ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به.

وظنوا أن إنعام الله على المرء بالمال وعرض الدنيا الزائل إنما هو لكرامته عنده، ورفعة قدره وفضله لديه، وأن من ضيق عليه الدنيا ولم يعطه إنما ذلك لهوانه عنده، ولهذا فضلوا عليه من وجهة نظرهم من لم يشتم مثقال ذرة من كماله، ومن بلغ من جرمه ومنتهى حمقه أن جعل إلهه الذي يعبده ويتقرب إليه صنما أو حجرا أو شجرا لا يضر ولا ينفع، أو طعاما متى ما جاع أكله وصنع غيره[١]، وذلك باطل، فكم من مُضَيَّقٍ عليه مُكَرَّمٌ عند الله، وكم من مُوَسَّعٍ عليه مهان لديه[٢]؛ لأن مراتب السعادة ثلاثة، أعلاها النفسانية والأحوال القلبية، وأوسطها البدنية، وأدناها الخارجية وهي المال والجاه، والقوم عكسوا القضية فجعلوا أخسَّ المراتب أشرفها، فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، وحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم[٣].

فقولهم: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) إبطال لكونه رسولا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملزومية؛ لأن التحضيض على ما هو مقطوع بانتفاء حصوله يستلزم الجزم بانتفائه، فضلا عما فيه من الغرور والعجب الكاذب اغترارا بحال التَرَفُّه التي هم فيها، وفتنةً باستحقاقهم التقدم في الفضائل، وتعجيبا من ادعاء الفضل والهدى عند الله لمن هو دونهم أو أحط منهم[٤].

وقد كثرت نظائر ذلك منهم، نحقولهم: ﴿ ﴾ الأنعام:٥٣، ﴿ ﴾ القمر:٢٥، ﴿ ﴾ الأنبياء:٣٦، ﴿ ﴾ الفرقان:٤١، ﴿ ﴾ ص: ٨، وقوله حكاية عنهم: ﴿ ﴾ سبأ:٣٥، وقال أيضا: ﴿ ﴾ المزمل:١١، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أنفوا عن اتباعه لمَّا تبعه العبيد والفقراء، وقالوا ما ورد عنهم: أيريد محمد أن نكون تبعا لهؤلاء (يريدون خبابا وبلالا وعمارا وصهيبا) فلو طرد محمد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم له في صدورنا، وأطمع له عندنا، وأرجى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له، فأنزل الله: ٥٣

﴿ ﴾ الأنعام:

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ٧٦٤، الطبعة: الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة ١٦٢/٩.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ١٩٧/٢٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير ١٢١/٦.

٥٣،٥٢[١]

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم مطولا مفحما لهم، منكرا عليهم قياسهم، مخاطبا عقولهم، وجاء على أجزاء:

١- □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ الزخرف: ٣٢،

الذي اعتمد فيه الحجاج على التعبير بفعل الكلام الإنشائي (الاستفهام) **الذي يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمته الحجاجية**[٢] **بما يحمله من افتراض ضمني يجعله يحمل طاقة حجاجية؛ إذ الغاية من الاستفهام هنا تتمثل في فرض إجابة محددة على المتلقي يمليها عليه المقتضى الناشئ عنه الاستفهام، وهي نفي كونهم يقسمون رحمة الله، ومن ثمَّ يتم توجيه دفة الحوار معه إلى الوجهة التي يريدها المتكلم، وعليه يأتي الاستفهام لإجبار المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه البعد الاستفهامي الاقتضائي الذي لا يحتاج إلى الإجابة لبداهتها، فالسؤال فيه ما هو إلا ضرب من الإثبات المباشر لعلم السائل بالمطلوب، ووظيفته لا تتعدى التذكير بالجواب**[٣]**، فمن المعلوم المسلم به عند جميع العقلاء أن الاصطفاء للرسالة مقصورٌ عليه سبحانه، ومن ثمَّ جاء هذا الاستفهام الحجاجي حاملا معنى تقرير وإثبات اختصاصه سبحانه وتعالى باصطفاء من شاء للرسالة ونزول القرآن، وأنه وحده الذي يملك اختيار المتأهل لذلك، مبطلا وموبخا ومخطئا لهم في تحكمهم، أي: ليس الأمر مردودا إليهم، ولا موقوفا عليهم، بل هو إلى الله وحده**[٤]،فلما نصبوا أنفسهم منصب من يتخير أصناف الناس للرسالة عند الله، وجعلوا لأنفسهم ذلك من دونه، فكان مقتضى كلامهم أن الاصطفاء للرسالة بيدهم أنكر ذلك وأبطله عن طريق الاستفهام الإنكاري التعجيبي الدال على التعجب من إعراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة[٥]، قاصرا ذلك عليه وحده، مقدما ضميرهم (أهم يقسمون) على الخبر الفعلي ليتسلط الإنكار عليه، فضلا عن دلالته على الاختصاص الذي يحسم القضية، ويدحض الاقتراح من أساسه[٦].

قال الرازي: " وتقرير هذا الجواب من وجوه:

١- أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا، ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، والتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوة أولى بألا يقدروا على التصريف فيه.

٢- أن اختصاص الغني بالمال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٠٤/٢٠.

(٢) ينظر: الخطاب والحجاج، ص ٥٧.

(٣) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة "دراسة تداولية"، ابتسام بن خراف، ص ٣٠٨، دكتوراه مخطوط بجامعة باتنة، الجزائر ٢٠٠٩/٢٠١٠م.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٢٤/٧.

(٥) ينظر: مفاتيح الغيب ١٨٠/٢٧.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٢٤٤/٢٥.

حجة علينا في أن نحسن إليه أيضا بالنبوة.

٣- أننا لما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز أيضا أن نوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق؟؟(١).

وفي توجيه الخطاب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – مضافا إلى لفظ الربوبية إيماء إلى تأييده، فضلا عن تأنيسه من استخفافهم في مقترحهم، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم، والإقبال عليه بالخطاب؛ إظهارا بأنه ربه المتولي أمره(٢).

وجملة (نحن قسمنا) تأكيد لاختصاصه سبحانه بالاصطفاء، وتعليل لإنكار أن يكون لهم شيء من القسمة، والنفي المستفاد من الاستفهام (أهم) واستدلال عليه، فكأنه قيل: فمن القاسم؟ فقال: نحن، أي: قسمنا بين الناس معيشتهم، وهيأنا لهم نظام حياتهم ببالغ الحكمة، فكان هذا التنوع؛ ليحتاج بعضهم بعضا، وكذلك الحال في إقامة بعضهم للتبليغ دون بعض، فإن ذلك أعظم شئون البشر(٣).

الجزء الثاني من الرد في قوله: ﴿ □ □ □ □ □﴾، وهي تذييل للرد عليهم **يعتمد على الحجاج التقويمي القائم على تصويب اعتقادهم وقلب قناعاتهم، من خلال بيان أن المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله التي هي خير مما يجمعون من المال الذي جعلوه سبب التفضيل حين قالوا: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)؛ لأن المال شيء جمعه المرء لنفسه، ولا يمكن مساواته باصطفاء الله للعبد وإرساله للناس، فرحمة الله هي اصطفاؤه عبده للرسالة عنه إلى الناس، فإذا كانوا غير قاسمين أقل أحوالهم (المال وما شابهه) فكيف يقسمون ما هو خير من أهم أمورهم**(٤).

الجزء الثالث من الرد قوله: ﴿□ □ □ □ ... ﴾ الزخرف: ٣٣، **الذي يعتمد الحجاج التقويمي أيضا من خلال إبطال ظن ضعفاء العقول أن للكفر أثرا في حصول المال قد جعله الله جزاء لمن سماهم الكافرين، ومن ثم يتبعونهم على الكفر؛ لتخيلهم الملازمة بين سعادة العيش والكفر**(٥).

فبعد أن أبطل سبحانه وتعالى كون المال سبب الفضل بإبطالين: (أهم يقسمون رحمة ربك)، و(ورحمة ربك خير مما يجمعون) أعقب ذلك بتعريفهم أن المال والغنى لا حظ لهما عند الله الذي أعطى كل شيء خلقه وجعل للأشياء مقاديرها، وكثيرا ما يعطي المال للكافر ومن لا خلاق له، فثبت بذلك أن المال قسمة من الله لها أسباب نظمها في سلك النظم الاجتماعية، وجعل لها آثارا مناسبة، وفرق شاسع بينها وبين

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٢٧/١٨٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٥.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٧/٢٥١، التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٤.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٧/١٨٠، التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٧.

مواهب النفوس الزكية والسرائر الطيبة؛ لأن المال غالبا مصدر لإرضاء الشهوات، ومرصد للتفاخر والتطاول، أما مواهب النفوس الطيبة فمصادر لنفع أصحابها والبشرية جمعاء، وهذا ما يحصل منه تحقير المال؛ إبطالا لما أسسوا عليه قولهم: (لولا نزل ... عظيم) [1]، والمعنى: لولا أن يكون الناس كلهم كفارا لخصصنا المال والرفاهية بالكافرين، وتركنا المسلمين لما ادخرنا لهم من خيرات الآخرة[2].

ويلحظ في نهاية هذا المطلب تشابه الكافرين بالرسل في كل مكان، هذا ما كان عليه قوم موسى معه، حيث قال عن الملأ: ٌ □ لج لح لخ لم لهمجَّ الزخرف:٤٧، وقالوا: ٌ □ تن تى تي □ □َّ المؤمنون: ٤٧، وهؤلاء قالوا: ٌ □ □ □ □ □ □َّ الزخرف:٣٠، وقال فرعون: ٌ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □َّ الزخرف:٥٢، وقال: ٌ □ □ □ □ □ □َّ الزخرف:٥٣، وهؤلاء قالوا: ٌبخ بم به تج تح تخ تم ته ثمَّ الزخرف: ٣١، فحالهم مشابه لحال الملأ من قوم فرعون.

المطلب الحادي عشر: اقتراح الإتيان بغير القرآن، أوتبديله.

وجاء ذلك في قوله تعالى: ٌلخ لم لى لي □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ نم نى □□ □ □ □ □ □ □ يم يي □□ □ □ ٌ ٍ َ ُ □ □ □ □ □ □ □ □ □ بر □ بن بى بي تر □ □ □ تن تى تي□ □ □ □ □ □ □□ □ □ □َّ يونس: ١٥، ١٦

حيث طلبوا واقترحوا شيئا عجيبا لا يصدر إلا عن مكذب بالحشر والنشر والبعث والقيامة[3]، جاهل بوظيفة القرآن وجدِّية تنزيله، أو عابث هازل مستهزئ بمن جاء به.

اقترحوا أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن بإبطاله وتعويضه بغيره لا يكون فيه ما يكرهون أو يغيظهم، ليس فيه ترك عبادة الأصنام ولا عيبها.

أو أن يبدله بأن يعمد إلى القرآن فيغير الآيات المشتملة على ذم الشرك بالثناء، وعبارات البعث

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٥/٢٤٧.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ١٧/٤٥.

بضدها، والوعيد بالوعد والبشارة.... [١]، وذكر الواحدي أنها نزلت في خمسة نفر قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم –: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى، وقال الكلبي: نزلت في المستهزئين، قالوا: يا محمد، ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[٢].

وذلك أسلوب من أساليب تكذيبهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وشبهة من شبهات طعنهم في نبوته، وإنكار أن القرآن منزل من عند الله، وتوهمهم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – وضعه من تلقاء نفسه[٣].

وهذا الاقتراح يحتمل وجهين:

<u>الأول:</u> أن يكون على سبيل الجد؛ إطماعا له أن يؤمنوا به، بأن يكونوا فعلا قد طلبوا الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود؛ لأن هذا القرآن أهانهم بذم آلهتهم، وتسفيه عقولهم، ولقناعتهم أنه من تلقاء نفسه، فسألوه على سبيل التجربة والامتحان حتى إذا فعل ذلك علموا كذبه.

<u>الثاني:</u> أن يكون على سبيل السخرية والاستهزاء والتطير، وأنهم لا يعترفون بالقرآن، ولا بأنه معجز، ولا أنه منزل من عند الله، ولا أن الذي جاء به مرسل[٤].

وعلى كلا الاحتمالين فإن اقتراحهم يدل على الجحود والتعنت والسفه؛ إذ لا منفعة لهم ولا لغيرهم في الإتيان بغيره أو تبديله[٥] ولا مطمع في كتاب أفضل منه، ولهذا كان وصف الآيات في قوله في صدر الآية: ﴿ لم لى لي ﴾ بالصفة (بينات) لزيادة التعجيب من طلبهم الإتيان بغيره أو تبديله إذ لا طمع في خير منه[٦].

الرد عليهم:

لما كان اقتراحهم – كما سبق – يحتمل وجهين

الأول: معنى صريحا بأن يكون على سبيل الجد، وأن يكونوا فعلا طلبوا أن يأتي بقرآن آخر، أو يبدل آيات القرآن الموجود.

الثاني: معنى التزاميا كنائيا بهدف التهكم والاستهزاء؛ دلالة على أنه ليس رسولا من عند الله، ولا القرآن منزلا من الله، كان الجواب على جزأين؛ ليقتلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين، ومن نفوس من يستمعونهم من دهمائهم فيحسبوا أن كلامهم على سبيل الجد ويترقبوا الإتيان بغير القرآن أو تبديله[٧] إن كانوا متهكمين مستهزئين.

الجواب الأول:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٨/١١.

(٢) ينظر: أسباب النزول للواحدي ١٧٩، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز، مكة المكرمة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٥/١٧، التحرير والتنوير ٣٧/١١ – ٤٠.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٦/١٧، التحرير والتنوير ٣٨/١١، ٣٩.

(٥) ينظر: تأويلات أهل السنة ٢٠/٦.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٣٨/١١.

(٧) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٦/١٧، التحرير والتنوير ٣٨/١١، ٣٩.

جاء رد الاحتمال الأول بالحجاج التداولي المعتمد على فعل الكلام (□) ذي التعبير الإنجازي الموجه، الذي يربط الرد بباقي الخطاب وكل السياق ُ □ □ □ □ □ □ يم يي □□ ً فهو جواب صريح عن اقتراحهم، نفى فيه إمكانية تبديل هذا الكتاب المحكم المشتمل على حقائق الأصول، ودقائق الفروع، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الغابرين في عبارة عجز عن معارضتها أرباب الفصاحة، وفرسان البلاغة، وأساطين الكلام، فكيف والناظر في أمري وأمره أن آتي به أو أُغَيِّره أو أبدله مع كوني مثلكم، وقد عرفتم عجزكم عن الإتيان بمثله مع التظاهر، فكيف آتي بمثله وحدي مع كوني أميا، وقد لبثت فيكم زمنا طويلا من قبل، لا أتلوا عليكم شيئا، ولا أدعي فيكم علما، ولا أتردد على عالم، ليس التبديل بيدي[١].

ثم علل ذلك بجملة: ُ□ □ ٌ ٍ ً ٌ ً بقصر تعلق الاتباع على ما أوحى الله به إليه؛ تأكيدا لعدم التصرف بالتبديل أو التغيير[٢].

وعلل عدم اتباعه غير الوحي بجملة: ُ□ □ □ □ □ بر ً؛ دلالة على أن الإتيان بغيره ممتنع[٣].

ويلحظ هنا أنه اكتفى في الرد على اقتراح تبديله، من دون الرد على اقتراح الإتيان بغيره في قولهم: ُ□ □ □ نمً؛ حيث جاء الرد بأنه ما يكون له – عليه الصلاة والسلام – أن يبدله من تلقاء نفسه ُ □ □ □ □ □ □ □ يم يي □□ ً، وذلك لوجهين:

الأول: أنه عليه السلام لما بين أنه لا يستطيع أن يبدله من تلقاء نفسه؛ لأن منزله هو الله، ولأنه لا يقدر على مثله كسائر البشر – وكان ذلك متقررا في نفوسهم بالتحدي به – دلّ ذلك على أنه لا يستطيع الإتيان بغيره.

الثاني: أن التبديل أقرب إلى الإمكان من تغييره وجواب الأقرب الأسهل جواب عن الأصعب الأبعد[٤].

قال البقاعي: " ولما كان التبديل يعم القسمين الماضيين (يقصد الإتيان بغيره، وتبديله) قال: ُ □ □ً[٥]، فهذا الجواب كافٍ؛ لأنه إذا كان التبديل الذي هو تغيير كلمات منه وأغراض ممتنعا فإن إبطاله جميعه والإتيان بغيره أجدر بالامتناع[٦].

الجواب الثاني:

جاء رد الاحتمال الثاني أن يكون اقتراحهم استهزاء وتهكما على سبيل الكناية عن كذبه – عليه الصلاة والسلام – وكونه ليس مرسلا ولا القرآن منزلا من عند الله **معتمدا على اللون الحجاجي نفسه (□) في** ُ□ بن بى بي تر □ □ تن تى تي□ □ □ □ □ □ □ □□ □ □ً يونس: ١٥، فهو جواب عن لازم

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٦/١٧، ٤٧.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٤٠/١١.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٤٠/١١.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٦/١٧.
(٥) ينظر: نطم الدرر ٤٢٥/٣.
(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٣٩/١١.

كلامهم[١].

ولكونه جوابا مستقلا، وعن معنى قصدوه من كلامهم جاء الأمر به مفصولا عن الأمر الأول ُ □ □ □ □ □ يم يي □□ ً، غير معطوف عليه؛ تنبيها على استقلاله، وأنه ليس بتكملة للجواب الأول.

وفيه استدلال على أنه مرسل من عند الله تعالى، وأنه لم يختلق القرآن من عند نفسه بدليل أمره بـ ُ□ بن بى بي تر □ □ تن تى تي□ □ □ □ □ □□ □ □ ّ،

فهو دليل اشتمل على عدة أدلة:

١- الاستدلال على المطلوب من خلال إثبات انتفاء نقيضه؛ لأن مثل قوله: ُ بن بى بي تر □ □ ّ أي: لو شاء الله ألا أتلوه ما تلوته، وبناء الاستدلال على عدم مشيئته نفي تلاوته؛ لأن ذلك ما ادعاه الكفار لزعمهم أنه ليس من عند الله، فكان الاستدلال إبطالا لدعواهم ابتداء، وإثباتا لدعواه مآلا، وهذا الجمع بين الأمرين من بديع الاستدلال، أي: لو شاء الله ألا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني الله به، ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري.

٢- الدليل الثاني هو مقتضى جواب (لو)، فإن جواب (لو) يقتضي استدراكا مضطردا في المعنى بأن يثبت نقيض الجواب الذي قد يستغنى عن ذكره وقد يذكر، كما في قول أبيّ بن سلمى بن ربيعة الضبي:

فلو طار ذو حافر قبلها

لطارت، ولكنه لم يطر[٢]

والتقدير: لو شاء الله ما تلوته ولكنتي تلوته، وتلاوته هي دليل الرسالة؛ لأن تلاوته تتضمن إعجازا علميا، حيث جاء به من لم يكن من أهل العلم والحكمة، وبلاغيا؛ إذ كان كلاما أعجز أهل اللغة كلهم مع تضافرهم في بلاغتهم وتفاوت مراتبهم، وليس من شأن أحد من الخلق أن يكون فائقا على جميعهم، ولا من شأن كلامه ألا يستطيع مثله أحد منهم[٣].

ولهذا فرَّع عليه تذكيرهم بحاله القديمة المعروفة عندهم، حال الأمية في: ُ □ □ □ □ □□ □ ّ، أي: كان بين ظهرانيكم مدة طويلة، تشاهدون أطوار نشأته، ولا ترون فيها حالة تشبه حال العظمة والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحى الله إليه بالرسالة، ولا بلاغة قول واشتهارا بمقاولة أهل البلاغة والخطابة والشعر تشبه بلاغة القول الذي نطق به عن

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٤١/١١.

(٢) البيت منسوب في حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي القسم الثاني ص٥٥٦ لأبي بن ربيعة، في قصيدة مطلعها:

وخيل تلاقت رِيعَانُها بعِجْلِزَة جَمَزَى المُدَّخر

شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ومنسوب في الأنوار ومحاسن الأشعار، الشمشاطي ص ٥٤، لأُبَيّ بن سُلَيْمَانَ بن رَبِيعَة بن ذُبيان، موقع الوراق http://www.alwarraq.com، ومنسوب لبعض الأعراب في المنصف للسارق والمسروق منه، لابن وكيع التنيسي

موقع الوراق (http://www.alwarraq.com)

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٤١/١١.

وحي القرآن، ولو كانت حالته بعد الوحي حالا معتادا، وكانت بلاغة الكلام الذي جاء به كذلك لكان له من المقدمات من حين نشأته ما هو تهيئة لهذه الغاية، وكان التخلق بذلك أطوارا وتدرجا.

فدل عدم تشابه الحالين – كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿ تى تي □ نى ني □ ير ﴾ العنكبوت: ٤٨ – ٤٩– على أن هذه الحال الأخيرة حال رباني محض، وأن الكلام موحى به إليه من عند الله، وليس له بذاته عمل فيه.

وما كان هذا الكلام دليلا على المشركين، مبطلا دعواهم إلا لمَّا بُني على تلاوة القرآن، فكانت التلاوة وذكر القرآن في الاستدلال هو مناطه[1].

وقوله: ﴿ □ □ ﴾ تفريع للإنكار والتعجيب من حالهم بعد نهوض الدليل عليهم؛ إذ ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل، أي: أفلا تعقلون أن هذه الحال من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته؛ إذ لا يتأتى مثله أو ما يقاربه في العادة إلا بعد مدارسة العلماء، ومطالعة الكتب، ومحاورة البلغاء والخطباء والشعراء زمنا، فكيف يأتي به من نشأ بينكم، وما عرف عنه مزاولة العلوم، ولا مجالسة أهل الكتاب؟؟؟ !!! ، أفلا تكونوا عاقلين فتعرفوا أن مثل هذه الحال لا تكون إلا من وحي الله[2].

فضلا عما في هذا التذييل من التعريض بجهلهم وعدم تعقلهم، ردا على إنكارهم وتعنتهم وجحودهم (بناء على أن مقصدهم من اقتراحهم الجد)، والاستهزاء والتهكم بهم؛ ردا على تهكمهم واستهزائهم (بناء على أن المراد من اقتراحهم الاحتمال الثاني التهكم والاستهزاء به وبما جاء به).

المطلب الثاني عشر: نزول القرآن جملة واحدة.

وذلك في قوله: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ لج لح لخ لم لى لي □ □ □ □ □ ﴾ الفرقان: ٣٢ – ٣٣

فقد اقترحوا هنا = عنادا وتعنتا وجحودا، وتفننا في الإصرار على الكفر، لا طلبا للهداية أو الاسترشاد، وأن هدفهم بهذا السؤال أن يضللوا

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٧/١٧، نظم الدرر ٤٢٦/٣، التحرير والتنوير ٤١/١١، ٤٢.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب ٤٧/١٧، نظم الدرر ٤٢٦/٣، التحرير والتنوير ٤٣/١١، ٤٤.

سبيله – صلى الله عليه وسلم – ويحتقروا مكانته، ويهدروا منزلته = أن يكون القرآن كله قد نزل عليه كاملا جملة واحدة.

وذلك أمر بيِّن الفساد، غير معقول، لا يوافق طبيعة الأشياء، فضلا عن كونه لا جدوى منه؛ لان الله تعالى أنزل كتابه على رسوله – صلى الله عليه وسلم –؛ ليربي أمته، وينشئ مجتمعا صالحا، ويقيم نظاما صلبا غير متزعزع الثوابت ولا مهزوز المبادئ، وبدهيٌّ أن التربية وإنشاء المجتمعات الفاضلة يحتاج إلى فترة زمنية ليتفاعل، ثم ينتقي ما هو نافع فيتأثر به ويلتزمه ويتبناه وينميه، ويطرح كل ضار وسيئ وقبيح ويجتنبه، وهذا الانتقاء وذلك التفاعل والتأثر يحتاج حركة تترجمه إلى واقع؛ لأن النفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا بين عشية وضحاها من خلال قراءة كتاب كامل دفعة واحدة ولو كان يحوي منهج الحياة الجديد، إنما يكون الانتقاء والتأثر والتفاعل تدريجيا؛ ليرقى المجتمع شيئا فشيئا، وليتعَّود على ما في ذلك المنهج الجديد من تكليفات والتزامات رويدا رويدا حتى لا يستثقلها أتباعه؛ ومن ثمَّ يتضح جليا أن اقتراح الكفار نول القرآن كاملا دفعة واحدة لا يستقيم وطبائع الأشياء؛ لأنه جاء بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وهو في الوقت ذاته منهاج تربوي يتماشى مع الفطرة السليمة، ولذلك اقتضت حكمته تعالى أن ينزل منجما حسب الحوادث والأحوال، وكان اقتراح نزوله جملة واحدة فضول ومماراة بما لا طائل تحته من ضيق العطن وقلة الحيلة، دأب المقطع المبهوت؛ إذ المدار على الإعجاز، أما كونه جملة واحدة أو مفرقا فذلك أمر لا فائدة لهم فيه[1]، بل إن نزوله مفرقا أظهر حيث يطالبون بمعارضة جزء منه، ولو نزل جملة واحدة وطولبوا بمعارضته مثل ما أنزل لكانوا عن ذلك أشد عجزا بعد أن ثبت عجزهم عن جزء منه[2].

ووجه فساده أنهم تُحُدُّوا بنجم واحد من نجومه (بأقصر سورة منه) فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة، وإذا بهم يطلبون نزوله جملة واحدة كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته[3].

كما أن اقتراحهم يبين من جهة أخرى أنه لا غضاضة عندهم في القرآن، وأن عيبه الوحيد عندهم بعد نزوله على محمد بالذات أنه لم ينزل جملة واحدة؛ وكأن طاقة الإيمان عندهم تناسب نزوله كذلك!!!

الرد عليهم:

جاء الرد عليهم على ثلاثة أجزاء:

الأول: قوله: ﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﴿، **الذي اعتمد على الحجاج بأسلوب التمثيل بالتشبيه، عن طريق عقد مشابهة بين نزول القرآن شيئا فشيئا، وبين صورة العلم الذي يلقى على المتعلم شيئا بعد شيء، وجزءا بعد جزء فيكون أيسر وأسهل، ليتمكنوا من استنباط نهاية واحدة للتدرج في كليهما**، والجملة كلام مستأنف للرد على طلبهم نزوله جملة واحدة، أي: كذلك

(١) ينظر: نظم الدرر ٥/٣١٥.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٣/٢٧٨.

(٣) ينظر: الكشاف ١/١٤٥.

نزلناه متفرقا منجما لنثبت به فؤادك، فكلما نزل عليك شيء من القرآن ازددت طمأنينة وثباتا، وخصوصا عند ورود أسباب القلق – وما أكثرها في البدايات –، فنزول القرآن عند حدوث سبب أو اعتراض مشكلة له وقع عظيم في نفس النبي – صلى الله عليه وسلم – وتثبيت لقلبه أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ثم تذكره عند حصول سببه[١].

والعدول في الرد عن خطابهم إلى خطابه – صلى الله عليه وسلم – إعلام له بحكمة تنزيله مفرقا[٢]، وامتنان عليه بما فيه تسليته وتثبيت قلبه والتيسير عليه[٣].

والتثبيت مستعار لليقين والاطمئنان بحصول الخير لصاحبه.

الثاني: قوله: ُ لخ لم لى لي □ □ □ □ ً ٣٣، **الذي اعتمد على العامل الحجاجي (لا، وإلا) وهي من العوامل التي تدعم النتيجة المقصودة من الكلام، وتجعل ذهن المتلقي محصورا بين هذا الدعم وتلك النتيجة المقصودة، فتأخذ مرتبة البرهان الذي لا يُردُّ ولا يُدحضُ من دون النظر إلى احتمالات أخرى، ومن ثَمَّ يبرُزُ الجانب التداولي لأداة الاستثناء داخل سُلَّم الحجاج كونها مقدما للحجج والتدعيمات**[٤]، والمعنى: لا يأتونك بشبهة يتعللون بها فيها حال من أحوالك، بما لا يليق بك ولا يشبه حال رسول من الله إلا جئناك بالحق الثابت الذي لا شيء أثبت منه، فأرهقنا ما أتوا به لبطلانه، وفضحناهم بعد الستر

---

(١) ينظر: مدارك التنزيل ٥٣٥/٢، تفسير القرآن العظيم ٥٨٢، تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) ١٠٤٣٥/١٧، مطابع أخبار اليوم.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٤٤/١٩.

(٣) ولتفريقه وتنجيمه فوائد كثيرة ذكرها المفسرون، أهمها:

تقوية قلبه حتى يعيه ويحفظه؛ لأن المتلقي إنما يقوى قلبه على حفظ العلم إذا ألقي عليه شيئا بعد شيء وجزءا عقب جزء، فذلك أهون على حفظه وفهمه وتدبره.

أنه كان ينزل حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين ليكونوا أوعى بما ينزل فيهم؛ لأنهم يحتاجون إلى العمل بما فيه، وذلك ما يثبت فؤاد النبي ويشرح صدره.

أن تنزيله مفرقا أدخل في الإعجاز، وأنور للحجة؛ لأن تحديهم أن يأتوا ببعض تلك التفاريق أهون بالقياس على أن يأتوا به كاملا، والعجز عنها أدل على الإعجاز، وأقوى في الدلالة على العجز عن الكل.

أنه لو نزل جملة واحدة لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام الإعجاز.

أن السفارة بين الله وأنبيائه وتبليغ كلام الله للخلق منصب عظيم ولو نزل جملة واحدة لفات ذلك المنصب العالي.

أنه لو نزل جملة واحدة لنزلت الشرائع بأسرها جملة واحدة، ولشقت عليهم التكاليف.

أنه صلى الله عليه وسلم إذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته، فكان ذلك أقوى على تأدية ما حمل، والصبر على عوارض النبوة واحتمال الأذى والجهاد.... ينظر: مفاتيح الغيب ٦٩/٢٤، نظم الدرر ٣١٥/٥، التحرير والتنوير ٤٤/١٩.

(٤) ينظر: تجليات الحجاج في القرآن سورة يوسف أنموذجا، ص ١٩٣.

فضيحة تخجل القائل والسامع القابل[١]، وأبطلنا أمثالهم، وأريناهم أن حالة الرسالة عن الله لا تلازم ما زعموه سواء كان ما أتوا به تشبيها صريحا بأحوال غير الرسل، أو كان ما زعموه نفي مشابهة حاله بحال الرسل، فلا يأتون بباطل إلا وأبطلناه[٢] بما هو أحسن تفسيرا، أي: كشفا لما غطَّى الفهم من ذلك الذي خيَّلوا به، وادعوا أنهم أوضحوا به وجها من وجوه المطاعن[٣]، وأحق في الاستدلال وأوقع في نفوس السامعين؛ لما فيه من المزية في البيان والوضوح[٤].

والجملة فذلكةٌ جامعةٌ تَعُمُّ ما تقدم وما عسى أن يأتوا به من التشكيك والتمويه، كل ذلك مدحوضٌ بالحجة الواضحة الكاشفة لترَّهاتهم، بعد استقصاء أكثر معاذيرهم وتعللاتهم، وإلقامهم أحجار الرد إلى لهواتهم[٥].

الثالث: قوله: ﴿ ﴾ الفرقان: ٣٤

وهو استئناف ابتدائي لتسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – ووعيد للمشركين؛ إذ يعلم من السياق بطريق التعريض أن الذين يحشرون على وجوههم هم الذين يأتون بالأمثال تكذيبا للنبي إذ كان قصدهم مما يأتون به من الأمثال تنقيص شأنه، ولهذا أهانهم عن طريق حشرهم إلى جهنم على وجوههم، وبكَّتهم ووبخهم بأنهم أهل شر المكان وضلال السبيل[٦].

قال البقاعي: " ولما أنتجت هذه الآيات كلها أنهم معاندون لربهم، وأنهم يريدون بهذه التساؤلات أن يضللوا سبيله، ويحتقروا مكانته، ويهدروا منزلته علم قطعا أنه يعمِّر بهم دار الشقاء، وكان ذلك أدل على أنهم أعمى الناس عن الطرق المحسوسة، فضلا عن الأمثال المعلومة والتمثيل للمدارك الغامضة، وأنهم أحقر الناس؛ لأنه لا يحتقر الأفاضل إلا ناقص، ولا يتكلم الإنسان إلا فيما هو خير منه = قال معادلا لقوله: ﴿ ﴾ الفرقان:٢٤: ﴿ ﴾ الفرقان: ٣٤[٧].

الخاتمة:

الحمد لله بدءا وختاما، وصلاة تامة وبركة على خير خلقه وسلاما، وبعد،،،

فإنه من خلال هذه التطوافة العجلة حول مقترحات الكفار على النبي – صلى الله عليه وسلم – وردها في القرآن الكريم يمكن رصد ما يلي:

١- تشابه حال المشركين في كل العصور، وإصرارهم على الكفر.

٢- صبر النبي – صلى الله عليه وسلم – على عناد قومه، وتحمله استهزاءهم وتهكمهم وتنقيصهم.

٣- أن هذه المقترحات في مجملها لم تكن للهداية والاسترشاد، بل كانت تورُّكا وتعجيزا، وجحودا وعنادا وإنكارا لأصل الرسالة، أو كانت استهزاء وتهكما وتنقيصا من قدر النبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا في نهاية الأمر يؤدي إلى ما آل إليه الأول من العناد والإصرار على الكفر.

٤- أن جل المقترحات بُنيت على

(١) ينظر: نظم الدرر ٣١٦/٥.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٤٦/١٩، ٤٧.
(٣) ينظر: نظم الدرر ٣١٦/٥.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٦٩/٢٤.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٤٦/١٩.
(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٤٧/١٩.
(٧) ينظر: نظم الدرر ٣١٦/٥.

التحضيض بـ (لولا) أو (لوما)، ذلك التحضيض المستعمل مجازا في التعجيز، والدال على التحكُّم والمكابرة والعناد؛ قدحا في النبوة.

٥- تنوعت المقترحات وتعددت في بعض المواضع على غير تناسق ولا تناسب بينها، وكأنها شطحات تطرأ على مخيلات سكارى منفصلين عن الواقع أو متسامرين يتخيلون ثم يقولون، ولهذا جاءت مقترحاتهم هكذا أشتاتا لا رابط بينها؛ إذ ساووا بين إسقاط السماء عليهم كسفا وبين إتيان الله تعالى والملائكة قبيلا، ولم يفرقوا بين ما هو ضار وما هو نافع (الإسراء: ٩٠- ٩٣)، ما يشهد أنها ليست واقعية، ولا بهدف الاستدلال على ما طُلبت من أجله.

٦- أما الرد فقد جاء مراعيا حال النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين، مع عدم إغفاله حال المقترحين، ولهذا جاء فيه جانبان:

الأول: جانب الإقناع العقلي، والحجاج المفحم بالحجة والبرهان، والمحاكمة العقلية لمقترحاتهم؛ بغية استئصال إصرار وعناد أهل الضلال من خلال الحوار العقلاني ومقارعة الجحود بالحجة، والمقترح بالبرهان.

الثاني: جانب تسلية النبي – صلى الله عليه وسلم – والتسرية عنه، بمقابلة تهكمهم واستهزائهم به- بتهكم واستهزاء وتجهيل، فضلا عن التبكيت والتنكية بذكر مآلهم وعذابهم الأخروي في مصيرهم الي ينتظرهم.

٧- أحيانا كان الرد عليهم يأتي معدولا عما يقتضيه المقترح؛ تلاقيا مع مقصدهم منه، ومع ما هم فيه من تعنت ومكابرة وجحود واستهزاء، جزاء وفاقا على استهزائهم بآيات الله البيينات ورسوله إليهم، كما في: (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) يونس:٢٠، وقوله: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد: ٧، وقوله: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) الرعد: ٢٧، وقوله: (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) طه: ١٣٣، وقوله: (وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً) الإسراء: (٩٠- ٩٥)؛ لأسباب تم ذكرها في موضعها.

ثبت المصادر والمراجع:

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى(ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أسباب النزول للواحدي ١٧٩، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندري (ت: ٦٨٣)، بهامش الكشاف، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- الأنوار ومحاسن الأشعار، الشمشاطي، موقع الوراقhttp://www.alwarraq.com .
- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان– بيروت ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.
- البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجاً، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر، العدد ١٢ ديسمبر ١٩٩٧.
- تجليات الحجاج في القرآن سورة يوسف أنموذجا، ماجستير إعداد حياة دحمان، إشراف أ.د/ عز الدين صحراوي، مخطوط بجامعة الحاج لخضر – باتنة، الجزائر ٢٠١٣/٢٠١٤م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (ت: ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

- التسهيل في علوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت:٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.
- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م الطبعة: الأولى.
- التفسير البسيط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ٤١٤/٨، ٤١٥، تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، وقامت بنشره عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.
- تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت.
- تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ) ١٠٤٣٥/١٧، مطابع أخبار اليوم.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت:١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم، عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي، دار القاسم للنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ)، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت:١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.
- تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الأولى ٢٠٠١م.
- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)، الطبعة: الأولى، عالم الكتب – القاهرة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة: الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، ودار الأفاق الجديدة – بيروت.
- جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، الطبعة: الأولى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ، عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤١٨هـ.
- الحجاج والاستدلال الحجاجي "عناصر استقصاء نظري، أ/ حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، العدد ١،٣٠ يوليو – سبتمبر ٢٠٠١م.
- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة "دراسة تداولية"، ابتسام بن خراف، دكتوراه مخطوط بجامعة باتنة، الجزائر ٢٠٠٩/٢٠١٠م.
- الخطاب والحجاج، أبو بكر الغزاوي، الطبعة الأولى، دار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء ١٤٢٧هـ ٢٠٠٧م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، من دون.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت:١١٢٧هـ)، دار الفكر – بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤١٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتاب العربي بيروت.
- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت:١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي.

- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت ١٤١١هـ١٩٩١م.
- صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.
- العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ)، الطبعة: الأولى ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت:١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ.
- في ظلال القرآن سيد قطب، موقع التفاسير http://www.altafsir.com
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
- الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الطبعة: الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان – ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، بدون.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربين الرباط، بدون.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت:١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية – لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
- مختصر تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، عبد الله بن أحمد بن علي الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت:٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- المستطرف من كل فن مستظرف شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت:٨٥٢هـ)، الطبعة: الأولى، عالم الكتب – بيروت ١٤١٩هـ.
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت:٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- المعجم الوسيط.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية: دمشق – بيروت.
- المنصف للسارق والمسروق منه، لابن وكيع التنيسي، موقع الوراقhttp://www.alwarraq.co .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.